القسم الثاني

جندي محترف

إذا كنت تعرف عدوك وتعرف
نفسك، فلا داعي إلى أن
تخاف نتائج مائة معركة.

– صن تزو

الفصل الرابع

جيش جديد
أوستن، تكساس

تشرين الثاني/نوفمبر 1968

أمضيت الأسبوعين التاليين مع والدي في أوستن. استحمامات طويلة حارة. شرحات لحم أبي المشوية على الفحم. وفطيرة أمي بالكرز مع الآيس كريم. نعم، يا أمي، أحب تناول قطعة أخرى.

نمت تحت ملاءات نظيفة، والنافذة المفتوحة للنسمة الباردة. لا حاجة إلى الناموسية، ولا أكياس رمل، ولا طلقات إنارة، ولا دقيقة مجنونة.

وكما يقول المثل: استرخيت.

ولكن الحرب وصلت أمريكا، ووصلتها أيضاً الثقافة المضادة. لقد شاهدت مظاهرات الحرم الجامعي على شاشات التلفاز كل ليلة. وإذا لم يكن حشد من الطلاب يهتف عن شرعنة الماريجوانا، فإنهم كانوا يلوحون بأعلام الفيتكونغ.

وكان آخر علم رأيته للفيتكونغ في خرائب استحكام في سهل القصب، بعد أن طلبت إطلاق أربع وعشرين طلقة من عيار 155 ملم على الهدف.

ذهبت إلى بيت دلتا أبسيلون مرة واحدة فقط. فجميع الإخوان الذين كنت قريباً منهم تخرجوا، ولذلك لم يكن لي الكثير المشترك الذي يجمعني مع الشباب الذين قابلتهم. وتساءلت متعجباً: هل كنت أنا في مثل هذا الشباب في أي وقت سبق.؟

وفي صباح يوم خريفي مشرق، وكنت أجرف أوراق الشجر في فناء بيت أهلي، فكرت في المستقبل. في غضون أقل من عام سأكون مدنياً. وكنت أشعر أنني جاهز، أخيراً، لأحصل على الدرجة الجامعية، وربما جاهز حتى لأذهب لمدرسة الحقوق.

على أنه لن يكون سهلاً علي أن أجلس في الفصل إلى جانب شباب استخدموا تأجيل الخدمة العسكرية رسمياً للطالب كي يحتجوا ضد الحرب، في الوقت الذي لم يستطع فيه شباب الياقات الزرقاء أن يصلوا إلى الكلية وهم في الخارج في مراكز التنصت أو يجهدون أنفسهم في حقول الرز في شمس الدلتا.

في إحدى الأمسيات بعد العشاء، ساعدتني أمي في ارتداء بزتي وأنا أستعد لتقديم نفسي للعمل في فورت سيل، في تعييني التالي في الخدمة. لقد خاطت الرقعة الملونة للفرقة التاسعة المشاة على كتف الكم الأيمن، وهي تبين أنني خدمت في القتال مع الوحدة، وجاء أبي إلى المطبخ وشاهدني وأنا أدبس أشرطة الحرب والأوسمة.

وضربت بخفة الدبابيس الصغيرة الموجودة على الأشرطة: "هذه عناقيد ورق البلوط، للمكافأة الثانية أو الثالثة من الوسام نفسه."

وبطريقته المتعمدة، عدها. "ثلاثة قلوب قرمزية."

"أنا كنت هدفاً كبيراً." وكنت قد جرحت فعلاً عدة مرات أخرى، والقلوب القرمزية ترمز فقط للجروح التي أرسلت من أجلها إلى المستشفى.

"وكل هذه الأوسمة مع حرف " V في؟"

"حرف V يمثل كلمة شجاعة، يا والدي... ونجوم برونزية، وأوسمة جوية، وأوسمة تزكية الجيش. وهم أعطوها في نوع من صناديق الفشار."

ومر بيده نازلاً على لباسي الصوفي الأخضر: "لا أصدق ذلك، يا بني. نحن فخورون بك."

كان التلفاز يبث في غرفة المعيشة، مزيداً من الاحتجاجات، عالية، وفوضوية.

وقلت: "عندما هبطنا عائدين إلى ترافيس نصحونا بأن نرتدي ملابس مدنية ونحن في الطائرة في رحلة العودة إلى الوطن. الناس لا يحترمون البزة العسكرية الآن."

وعبس أبي "بعضهم لا يحترمونها، ومعظم الناس يحترمونها. أنت البسها، وكن فخوراً بها."

"كن واثقاً."

سألبس تلك البزة لأذهب إلى فورت سيل، وفيها سأعلم العسكر الشبان كي يبقوا أحياء. وبعدئذ فإن أيامي بصفة الرجل العسكري ستأتي إلى نهايتها. في عمر الثالثة والعشرين، حان الوقت لأضع الحرب والجيش خلفي، وأتقدم نحو العمل لحياتي.

ولكن لدي مشكلة. عدت إلى الولايات المتحدة منذ خمسة عشر يوماً ولم أجد الأعصاب لأهاتف كاثي. وآخر ما سمعت منها كانت ملاحظة باردة تفيد فيها استلام بلاهة السكران عن رسالتي عن الراحة والنقاهة في سيدني. لقد أعادت خاتم الخطوبة إلى أمها في لوتون للمحافظة عليه "إلى أن تأتي وتأخذه." نهاية الخطوبة. ونهاية القصة.

لا، ليست نهاية القصة. في صباح اليوم التالي، عندما كان أبي في العمل، وكانت أمي تتسوق مع جارة لها، التقطت الهاتف.

أكدت لي الفتاة التي أجابت في بيت الأخوات أن كاثي كارلي ستكون هناك فعلاً. وبدأت أتعرق، مثل الانتظار لسماع الانفجار لطلقة التحديد في المدفعية التي تكون قريبة من موقعنا نحن.

"هذه كاثي."

كان صوتها كما تذكرته، لطيفاً لكنه قوي.

"هذا أنا، من فضلك لا تضعي السماعة."

"أوه، توم. لن أضعها. هل أنت بخير؟"

"أنا عظيم. حتى إنني الآن أحسن وأنا أتكلم معك. اسمعي، أنا على وشك أن أقود السيارة إلى أوكلاهوما. هل تعتقدين أننا قد نستطيع أن نتواعد على لقاء؟"

كان الخط صامتاً. وأخيراً تكلمت "سيكون هذا جميلاً. يا توم"

تزوجنا أنا وكاثي في فورت سيل. في نيو بوست شابل في يوم السبت، 22 آذار/مارس 1969. كان ثوبها في الزفاف جميلاً. واشتريت لنفسي لباساً رسمياً من بزة زرقاء، على الرغم من أنني لن أحتاج إليه إلا لبضعة شهور أخرى فقط لأنني وعدت زوجتي الجديدة أن أخرج من الجيش. غادرنا الكنيسة ذراعاً في ذراع، تحت القوس التقليدي من السيوف.

كان بيتنا الأول بيتاً بالإيجار في لوتون، يشبه كثيراً البيت الذي سبق أن تقاسمنا السكنى فيه أنا وغلين ستيوارت عندما قابلت كاثي. وعندما أنهت مدرستها الثانوية في لوتون لتعليم الطلاب، توليت أنا قيادة بطارية تدريب في مدرسة المدفعية. كلانا كان مشغولاً، ولكننا كنا متحابين بأكبر قدر من الحب يمكن أن يعيشه الإنسان. وفي كل يوم، وفي كل ليلة، تعززت لدي أكثر فأكثر فكرة أنني قد أعيش حياة طويلة، وسعيدة، وعادية وتحولت الفكرة إلى حقيقة واقعة.

وعندما مر شهر نيسان/ إبريل وبدأت كاثي تدرُس أين ستعلِّم بعد أن تنهي درجتها الجامعية في شهر حزيران/ يونيو، بدأت أنا أفكر في المكان الذي سأذهب فيه إلى الكلية الجامعية. كانت أوستن اختياراً منطقياً، ولكني كنت لا أجد الاهتمام في مواجهة طلاب زملاء قد ينظرون إلى رجل عسكري عائد حديثاً من فيتنام نظرة ازدراء، صامتة أو محجوبة أو غير ذلك. ولوتون وفورت سيل، من جهة أخرى، كانت مدينة ذات توجه عسكري حازم، وسأعامل فيها بالمجاملة في التقدير، وبالاحترام في كل مكان ألبس فيه بزتي. ربما تستطيع كاثي أن تعلم في لوتون، وأنا أستطيع أن أنهي درجتي في أوكلاهوما. حتى أنني قد أستطيع أن أكون مزارعاً أربي الماشية مع دون خال كاثي وجيمي إلليس جدها، وهما رجلان كنت أرى فيهما الأخ والجد اللذين لم أكن أملكها أبداً.

ومع ذلك، فقد كانت الحقيقة هي أنني أحببت الجيش. ربما أستطيع أن أبقى في الجيش وتستطيع كاثي أن تُعلِّم... هكذا فكرت. لا، يجب علي أن أخرج. بعد أن

تنتهي فيتنام ويتقلص الجيش إلى قوته في الحرب الباردة، لن يكون هناك الكثير من المستقبل لنقيب مدفعية له رصيد كلي من خمسة وأربعين ساعة معتمدة من مستوى ج، و د من جامعة تكساس. بدون درجة جامعية، ليس لدي مسار وظيفي في العمل ضابطاً.

بعد ذلك، في وقت متأخر من أصيل في شهر أيار/مايو، استدعاني إلى مكتبه قائد كتيبتي، المقدم آل لاماس، وهو نجم سابق لكرة القدم في الكلية. كان يقرأ أفكاري عن التنسيق الأفضل بين وحدات المشاة ووحدات مدفعية الميدان التي تساندها. لقد كتبت التقرير مستمداً الأفكار من خبرتي مع إيرك أنتيلا ومع الوحدة 5-60، ووصفت وصلات اللاسلكي بالقنوات المنفصلة التي أقمتها في الطائرة العمودية للقيادة والسيطرة لأنصت إلى الوحدات الأرضية المتحركة المناورة في سماعة أذن واحدة ولقواعد نيران المدفعية بسماعة الأذن الأخرى. ووصفت تسليح واحدة من المجنزرات ام -113 في الكتيبة برشاش صغير عيار 62.7 ملم يعمل بالكهرباء، كنت قد التقطت ذلك من مفرزة الزوارق السريعة في الأسطول في ماي ثو.

قال المقدم لا ماس: "هذه أفكار تجديدية، يا توم."

"أحببت أن أعمل، يا سيدي، أن أجرب. أظن أني أخذت ذلك من أبي."

وقلب في ملفي الشخصي. "مدة خدمتك تنتهي في الخريف. وأنت تخطط للعودة إلى الكلية؟"

"نعم، سيدي، وسوف أقوم بها على الوجه الصحيح هذه المرة. لقد كنت شاباً غير ناضج عندما بدأت الدراسة في الكلية."

"حسناً، أنت الآن ناضج، يا توم. والجيش بحاجة إلى ضابط مثلك." وسلمني بيده استمارة مطبوعة.

وقرأت: "برنامج إكمال الدراسة الجامعية."

"سيدفع لك الجيش لتكمل الكلية، يا توم. وبعد تخرجك ستكون ملزماً أن تخدم لمدة سنتين في الخدمة الفعالة عن كل سنة قضيتها في الكلية."

وتفرست في الاستمارة. كان هذا مثيراً للاهتمام بالتأكيد. ولكن القرار لم يكن قراري وحدي. "سوف أتكلم مع كاثي."

وعندما مشيت راجعاً إلى مكتبي، كانت مكبرات الصوت حول المركز تبوّق العودة إلى الثكنة. وقفت بانتباه، وحييت في أثناء نداء البوق وإنزال العلم في ميدان الاستعراض. هذا هو من أكون: أنا جندي.

ولدت ابنتنا جاكلين في شهر أيار/ مايو1971 عندما كنت أنهي درجتي في إدارة الأعمال في جامعة تكساس، في آرلنغتون.

ومن طرق عدة، فإن الواجبات الصغيرة للأبوة مثل هز الطفلة بين ذراعي، وتسخين قنينة رضاعة لها، وإرجاعها إلى سريرها وهزه لتنام في منتصف الليل، ساعدتني على أن أضع ذكرياتي التي لا تني تتلبث في ذاكرتي عن فيتنام في منظور يحدد نسبة الأمور بعضها إلى بعض. لقد كنت فخوراً بمهنتي، ولكن هناك في حياتي ما هو أكثر بكثير من الأسلحة والتعبئة (التكتيك).

أمضيت وقتاً طويلاً في الدراسة، واعتصرت ثلاث سنوات من الدورات في اثنين وعشرين شهراً. كنت جاهزاً لأتعلم، ومع المساعدة من كاثي اكتشفت كيف أدرس. ولم تكن مبادئ المحاسبة أو قانون العمل التجاري في سهولتها لتقارن بقضاء ليلة أغطس فيها حتى صدري في مياه القناة، أطلب مهام رمي من ثلاث بطاريات مدفعية بينما أعمل في تحديد الأهداف على طائرة عمودية مسلحة من نوع سبوكي. وعندما تخرجت في شهر كانون الأول/ ديسمبر 1971 كنت قد اعتصرت سبعة وعشرين درجة أ، وثلاثة ب، وج واحدة وحيدة في التسويق، وهو بيان علامات مختلف اختلافاً بعيداً عن ذاك الذي استلمته عندما غادرت أوستن في 1965.

جاكي بنت العشرين شهراً في عربتها، وكاثي وأنا وصلنا إلى ألمانيا في صباح

يوم ثلجي من شهر شباط/ فبراير 1973. وبعد أسبوع من وصولنا توليت قيادة بطارية مدفعية هاوتزر، سرية الخيالة الأولى، من فوج الخيالة المدرع الثاني. كانت البطارية مرابطة في هانز شيم كاسيرن، وهي ثكنات ضخمة قديمة للجيش الألماني في قلب مدينة بيروث البافارية. وكان هذا شيئاً ما الآن: أنا قائد مرابط ومسؤول عن منصبي الخاص. أليس هذا بلداً عظيماً.

أفواج الخيالة المدرعة في الجيش تحتفظ بتقاليد الجنود الخيالة من القرن التاسع عشر. فبدلاً من الكتائب والسرايا، تتكون الأفواج من سرايا خيالة، وفصائل خيالة، وهي وحدات هجينة يشترك فيها الدروع، والمشاة، والمدفعية. وقد أعطاني الوقت الذي أمضيته مع فوج الخيالة المدرع الثاني فهماً بالعمق لفروع "المناورة" في الجيش، وهي خبرة لم يحصل عليها أبداً معظم ضباط المدفعية.

في هذه النوبة من الخدمة، كرست الكثير من التفكير للتعبئة (التكتيك). ففي فيتنام كنت قد صرت معجباً بحركيات (ديناميات) القتال: وهي تحريك الجند والأسلحة بأفعل طريقة لصب أقصى قوة نارية على العدو. وكنت قد تعلمت قيمة القدرة على الحركة في أثناء خدمتي في بطارية الدلتا، ورفع المدافع ومنصات الإطلاق إلى الملاجئ التقليدية للفيتكونغ باستخدام الطائرات العمودية. كنا نمتلك ستة مدافع هاوتزر، ولكننا كنا قادرين على "أخذها إلى العدو" ومطاردته، متحولين بسرعة من موقع رمي إلى آخر. وتحت حماية تلك المدافع أيضاً، استطاعت وحدات المشاة التي ساندناها أن تنقل القتال إلى القنوات المكسوة بالأعشاب وقيعان القصب التي كان تشارلي يظن أنه آمن فيها.

تلك الخبرة أعطتني لمحة خاطفة عن مدى الفاعلية التي يمكن أن تكون عليها المرونة التعبوية. ولكن تلك كانت تجربة واحدة، وجه صغير من حرب استنزاف ثابتة. والآن، والاشتباك الأمريكي الذي طال عشر سنوات في فيتنام في تضاؤل، فقد كنت راغباً في أن أتعلم المزيد عن حرب المناورة (الحركة السَّوْقِية)، لأجرب يدي في جعل النظام أكثر حركية.

وهناك ميزة غير عادية أخرى لهذا التعيين الجديد: بطاريتي الهاوتزر كانت منفصلة جغرافياً عن منظمتها الأم، سرية الخيالة الأولى، التي كانت متمركزة في بندلاخ، "الصخرة" وتبعد ستة كيلومترات للشمال الشرقي من بيروث. إن الخدمة بشكل منفصل عن التدقيق اليومي والتوجيه من رؤسائي قدمت لي فرصاً للتجريب، وفرصاً للقيادة، وفرصاً للنجاح أو الفشل.

وعندما قابلت قائد سرية الخيالة المقدم كارل هوسمر في ذلك الصباح الشتائي في بندلاخ، أوضح لي أن الفشل كان إمكانية حقيقية في العام 1973.

كان يلقي لمحة سريعة على ملفي الشخصي، ولاحظ الوقت الذي قضيته في الكلية، والدورة المتقدمة في المدفعية التي اتبعتها عند العودة في فورت سيل. ثم قال لي المقدم هوسمر: "لقد كنت بعيداً عن الجنود لعدة سنوات، يا نقيب. وأنا متأكد أنك سمعت كلاماً عن مشكلات في الجيش. حسناً، نحن جزء من ذلك الجيش ونشاركه تلك المشكلات. هناك جنود سيئون في كل وحدة من الوحدات. ووحدتك ليست استثناء."

عند هذه النقطة كان آخر المسحوبين بالقرعة العسكرية في عصر فيتنام يكملون خدمتهم، والجيش الجديد المتطوع كله لم يترسخ بعد. والجيش، مثل بقية المجتمع، كان مبتلى ومخترق بالمخدرات. ولم تكن المعنويات جيدة، وفي بعض الوحدات كان يتفشى ما يقارب التمرد وسوء الانضباط.

واستمر هوسمر: "هناك تفاحات متعفنة في برميلك، يا نقيب، وسيكون عليك أن تتخلص منها وتشكل تلك الوحدة قبل أن تذهب تلك الوحدة إلى الجحيم."

"نعم، سيدي."

وعندما كنت أقود سيارتي راجعاً عبر الجبل نحو المنظر العمومي المديد لهانزيل وغريتيل من بيروث، وازنت التحديات التي تنتظر في المستقبل. كانت البطارية مبنية حول ستة مدافع هاوتزر ذاتية الدفع عيار 155ملم نوع ام-109، وهي مدافع كبيرة

محمولة على هياكل مجنزرة مصممة لتناور مع دبابات الفوج ومع ناقلات الجند المدرعة.

كانت منطقة عملياتنا قطاعاً ثلاثي المناطق على حدود ألمانيا الغربية والشرقية وتشيكوسلوفاكيا. وكان فوج الخيالة المدرع الثاني ثقيلاً في الدروع والمدفعية، ولديه عدة آلاف من جنود المشاة. ولكن حلف وارسو كان يتفوق علينا بالقوة العسكرية وبالرجال المترتبة على الجانب الآخر من الستار الحديدي. ولن تتفوق القوات التقليدية الحليفة ضد كتلة جيوش الدبابات السوفيتية، وفرق المشاة الآلية، وفرق المدفعية.

وهكذا فإن عقيدتنا الدفاعية اعتمدت على السلك العاثوري النووي.

وكان الجيش يمتلك صواريخ نووية ومدفعية نزولاً في التشكيلات حتى مستوى البطارية، بما في ذلك البطارية الموجودة تحت قيادتي. كان هناك مقذوفات نووية ذات "حاصل منخفض" لكل واحد من مدافع البطارية الستة، مخزونة في مستودع منيع خاص بالقرب من بامبرغ على بعد عشرين ميلاً من كاسيرن الخاصة بي. في أثناء أسبوعي الأول في القيادة زرت ذلك المستودع المنيع مع ثلاثة آخرين من الضباط في برنامج ثبات الأفراد، وهو نظام السيطرة على العطل الآمن الذي كان يضمن أن الأسلحة الذرية لن تستخدم إلا بناء على الأمر المباشر من الرئيس فقط. نحن الأربعة شكلنا الفريقين الأحمر والأزرق، وكل فريق من رجلين، وكل فريق يحمل نصف رمز الإطلاق. إذا جاء اليوم الذي كنا سنذهب فيه إلى الخيار النووي، فإن عضواً من كل فريق سوف يدمج الرموز مع نظيره لفك أقفال وصلات الفعل المرخص به، وكان هناك أقفال ضخمة على المقذوفات، تحول دون تعبئتها في الهاوتزرات بدون موافقة رئاسية.

ووفقاً لجزء من توجيهي، فإن وكيل الضابط الذي كان يعمل في نوبة ذلك الصباح قد فتح كل صناديق المقذوفات الستة للتفتيش. ووقفنا في نصف دائرة في ضوء كشافات غامرة الضوء نحدق في الأسلحة. ولولا العلامات المعلمة عليها ولولا

وصلات الفعل المرخص به الموجودة على المقذوفات المخروطية، لكانت تبدو مثل طلقات نظامية عالية الانفجار عيار 155 ملم. ولكن إذا حدث أن تحولت الحرب الباردة إلى ساخنة ودرجت الدبابات السوفيتية على أسيجة السلك الشائك وحقول الألغام التي تعلّم وتدل على قطاعنا من الحدود، فإن الصنوبر القاتم في بوهمر وولد سيتمزق بالانفجارات النووية. ذلك منظر كان يمكن له أن يُبقِي نقيباً يبلغ السابعة والعشرين من العمر يقظاً طول الليالي، وقد فعل ذلك.

ومع ذلك، في الحقيقة، كانت لدينا اهتمامات أكثر إلحاحاً من التهديد بغزو من العدو. لقد أمضيت وقتاً بالقدر نفسه أقلق بشأن تفتيشات الأسلحة النووية التي كنا نخضع لها بدون إنذار. إن هيئة من الضباط الكتومين الذين لا يتحدثون بكلام تافه من الفيلق السابع، من جيش الولايات المتحدة في أوروبا، أو من وكالة الدفاع النووي يهبطون على سرايا الخيالة، وعلى بطاريات الهاوتزر، ومستودعات التخزين. فإذا كانت حالة تدريبنا، ومعرفتنا بالإجراءات، وسجلنا في المحافظة على تخزين المقذوفات وصيانتها لا تفي بالمستويات القاسية بشكل يكاد لا يصدق، فإننا نفشل في التفتيش.

وكان هذا من الناحية العسكرية يعادل الإفلاس. ويمكن أن يؤدي إلى إعفاء قائد البطارية، وقائد سرية الخيالة، وربما حتى المقدم قائد الفوج. وربما ستكون واجباتنا التالية التي نعين لها مثل عمال المراحيض في معسكر تدريب للحرس الوطني في ويسكونسون الشمالية.

كان للخدمة في ألمانيا في السبعينيات من 1970 تحدياتها.

ولم يكن أقلها تحدياً تولي قيادة عدد عال مفرط الزيادة من الجند الذين لم يكونوا يريدون أن يكونوا في الجيش. وكان الحفر لاستخراج التفاحات المتعفنة التي سبق أن وصفها المقدم هوسمر هو ما سيعتبر أوليتي العليا.

ليس هناك أدنى شك أن البطارية كانت بحالة سيئة. فعندما سقت سيارتي عابراً أمام الحارس عند بوابة كاسيرن في ذلك الصباح الأول،كان الحارس يتسكع

داخل حجرة الحارس، وبندقيته مستندة إلى الجدار، ويداه في جيبيه. ونقل يداً ليقذف تحية مهينة، بيده اليسرى!

من حسن الحظ، أن الجيش كان محظوظاً بجيل من الرقباء المحترفين للسلك العسكري الذين يعملون بجد وكانوا قد خدموا نوبات متعددة في فيتنام، وشاهدوا تآكل الانضباط والمعنويات، وعرفوا طرق العسكر، ولم يستسلموا في مهنتهم. الرقيب الأول عندي كان واحداً من ضباط الصف هؤلاء.

قال لي وقد دخلنا ممراً طويلاً ذلك الصباح: "الضباط لا يصعدون عادة إلى الطابق العلوي وحدهم. وهم دائماً يحملون سلاحاً على جنبهم. ويسمي الجند هذا الطابق هايت آشبري(*) . ويستطيع الجندي أن يقرع الباب على بابين من هذه الأبواب ليشتري من الحشيش أو ميثامفيتامين الكمية التي يستطيع أن يدفع ثمنها. ومعظم المتاجرين يعطون بالدين إلى يوم الراتب."

وتابعنا مرورنا من جانب الأبواب المغلقة. وأضاف الرقيب الأول: "إن الجند الذين هم ضد المخدرات لا يريدون أن يعملوا هنا."

لقد رأيت ما يكفي.

في ذلك الأصيل قابلت ضباطي ورقباء فصائلي. "سوف تتغير الأمور في هذه البطارية. أريد قائمة بأسماء كل مروج مخدرات أو متاجر بها سواء أكان مؤكداً أو مشبوهاً على طاولتي غداً صباحاً."

كنت بحاجة إلى خطة لمحاربة هذا السلوك. وكانت البطارية تشترك في كاسيرن مع مفرزة من وكالة أمن الجيش، وكانت تملك مجموعة قوية من الأجهزة العسكرية الاستخبارية لاستراق السمع خفية. وهذا ما أعطاني فكرة، وحملتها إلى المحامي ممثل النيابة العامة في مقر قيادة سرية الخيالة. وعندما سمعها ضحك في نفسه: "حاول يا نقيب."

(*) هيت آشبري، قطاع من مركز مدينة سان فرانسيسكو، وفي الستينيات من ١٩٦٠م كان المكان المشهور لتجمع الهيبين واتباع ثقافة المخدرات.

في وقت متأخر في ليل يوم الجمعة التالي جلست إلى طاولتي محاطاً بملازمين وثلاثة رقباء، ومفرزة من رجال الشرطة العسكرية المسلحين، ووكيل من قسم التحقيق الجنائي. وكان فني من وكالة أمن الجيش ينحني على خزانة.كانت الأصوات الصادرة من المتكلم مصحوبة بصرير ولكنها مفهومة.

"طوني أنت... زفت. ولكن لكي ننهي فقط هذا القتال غير المنظم، سأدفع لك دولارين من أجل كيس مخدرات قيمته خمسة دولارات. وسآخذ مائة كيس."

وقال جندي درجة أولى اسمه طوني: "كل كيس بثلاثة دولارات. وأنا لا أبيع إلا مائتي كيس في المرة الواحدة. أنا تاجر، لا أي غلام قاطع طريق."

"أنت تعد النقود، وأنا أعد البضاعة."

وسار الشريط بنعومة على بكرات المسجل. في الغرفة 314 من الثكنة كانت صفقة كبيرة من الميثامفيتامين في طور التنفيذ.

وقال ملازم الشرطة العسكرية وهو يقف: "النقود تبدل الأيادي. نستطيع أن نقوم بإلقاء القبض، سيدي."

عريف الشرطة العسكرية الكبير ركل باب الغرفة 314 فانفتح ودخلت المفرزة. وتبعتها قريباً لأراقب إلقاء القبض ولأتأكد أن الدليل مؤمن تأميناً مناسباً.

وصاح طوني والشرطة العسكرية تضع الأصفاد في رسغيه: "لا يسمح لك أن تكسر الباب وتدخل إلى غرفة شخص بمثل ذلك. وأنا أعرف حقوقي."

وكيل قسم التحقيق الجنائي وقف على صندوق المتاع عند آخر السرير، وصور كومة من أكياس من ورق السيلوفان الصغيرة من الميثامفيتامين الباوري وكدسات من فئة الخمسة والعشرة من الدولارات.

واحتج المشتري مدعياً أنهم كانوا يشربون في أولد بيلي، وهو نزل محلي: "لقد وصلنا عائدين قبل قليل من مركز المدينة. وأقسم بالله. إن ذلك... الزفت كان ملقى هناك عندما دخلنا."واستدار إلي بوجه مثل وجه صبي في جوقة المرتلين: "هذا ليس حقاً يا نقيب.هناك شخص ما يستخدم هذه الغرفة."

وأعلمت الشرطة العسكرية: "خذوا المشبوهين."

على مر عدة شهور تالية قمنا بالتنصت على خمس غرف أخرى، واقتحمنا أربع صفقات ترويج أخرى، أدت في النتيجة إلى إلقاء القبض على سبعة أشخاص وقاد القبض عليهم إلى المحاكم العسكرية. شخص عنيف اقتحمنا غرفته واستخرجنا أربع كتل حشيش كان غاضباً جداً إلى الحد الذي جعله يوجه لي لكمة. وبعد أن دافعت عن نفسي، قبضت الشرطة العسكرية على الجندي وأخذته إلى المستوصف.

في أثناء الوقت الذي أمضيته في بيروث كنت أقود سيارة ألفا روميو قديمة رياضية، وكانت الحركة في السيارة عبر الشوارع الفارغة المرصوفة بالحصباء في وقت مبكر من كل صباح مصدر سعادة عظيمة لي.

في فجر بارد رطب من شهر آذار/مارس، غادرت الشقة التي كنت أعيش فيها مع كاثي وجاكي وتوجهت نحو سيارتي. وبينما كنت أعالج مفاتيحي نظرت سريعاً فرأيت أن القمة القماشية لسيارتي الألفا قد مزقت إلى ثلاث قطع صغيرة. نظرت حولي، وكان بضعة ضباط آخرون يوقفون سياراتهم المكشوفة في المساحة نفسها، ولكن لم تلمس أي من السيارات الأخرى. هذه لم تكن إذاً عملية تخريب متعمد للممتلكات. كانت رسالة من تجار المخدرات لإنهاء حالة ملاحقتهم.

إلى الجحيم هؤلاء المقززون.

بعد أسبوع كانت قمة السيارة قد استبدلت، وخرجت في الصباح لأجدها ممزقة مرة ثانية. وفي هذه المرة تركوا بطاقة زيارة، ملاحظة على قطعة ورق من كيس ورق بني. "في المرة القادمة عنقك."

وقلت في نفسي بهدوء: "سنرى."

تلقى الضابط التنفيذي في بطاريتي الملازم ستيف هيرست، معلومات خاصة تفيد أن واحداً من أسوأ التجار سمعة في البطارية، وسأسميه جونز، قد انتقل من الثكنة وكان يعيش مع صديقته الألمانية في مكان قرب محطة القطار. جمعنا بعض

الشرطة العسكرية واثنين من الشرطة الألمانية الذين ساعدونا في الحصول على ترخيص بالتفتيش، ثم قمنا بزيارة إلى جونز.كانت الساعة 003 صباحاً تقريباً، والمطر ينزل رذاذاً كالعادة.

ورد جونز على الباب وهو يلبس بنطلوناً قصيراً كخيال السباق، ويلوح بمفك براغي طويل من نوع فيلبس. "اخرجوا يا... زفت، من هنا."

لم تكن حركة بارعة منه أن يلوح بسلاح في وجه شرطي ألماني. وقد هشم الشرطي القوي الممتلئ رسغ الجندي بعصا محشوة بمعدن الرصاص.

وقرأ محقق قسم التحقيق الجنائي لجونز التهم الموجهة له في مستشفى بندلاخ عندما كان الأطباء يضعون جبيرة على ساعده المكسور.

وانتشرت الكلمة سريعاً: أيام ترويج وبيع الحشيش، وتمزيق قمم السيارة، في بطارية الهاوتزر الأولى قد ولت.

ولكن متعاطي الحشيش لم يكونوا المشكلة الوحيدة. إن عدداً من الجند الخيالة لم يكونوا يعيرون الجيش أدنى أهمية، هذا إن كانوا أصلاً قد أعاروه في السابق. بعضهم خدم في فيتنام قبل أن تسحب الولايات المتحدة آخر الوحدات القتالية بعد توقيع اتفاق باريس للسلام. ولكن معظم مثيري المتاعب لم يسمعوا صوت بندقية لعب أطلقت كبسولة في غضب. لقد كانوا بكل بساطة هم التفاحات المتعفنة التي زاد في حموضتها مزاج الأحوال السائدة آنئذ المناوئة للعسكرية، وكانوا يسممون المعنويات لعدد أكبر منهم بكثير من الشباب الذين كانوا يحاولون أن يقوموا بواجباتهم. إن الجيش الجديد، الذي يقوم فيه المنتسبون المتطوعون بشغل الرتب،لم يكن بحاجة إلى مثيري المتاعب هؤلاء.

حذرنا الجنود الذين يشكلون مشكلة من أنهم يخاطرون في الوصول إلى "ورقة سيئة"، أي الطرد العام أو غير المرغوب فيه. بعضهم اعتدل وتحسن.

عديدون آخرون لم يتحسنوا. وطوال سنوات، رأى هؤلاء الجند أن إحساس

الجيش بالقصد يتدهور، وأن تقاليده في الانضباط تدهورت معه. وفي الحقيقة، فإن القوات العسكرية الأمريكية كلها، وخصوصاً الجيش، كانت قد جرحت في حقول الرز والغابات في فيتنام. وصار الجيش مثل الأمّة التي خدمها، يشك في نفسه. لقد قاتلنا حرباً طويلة، مكلفة إلى أن بلغنا مأزق الجمود، ثم انسحبنا مدعين الوصول إلى "سلام مشرف." وامتد التشاؤم والسلبية من وزارة الدفاع نزولاً إلى مفارز بنادق المشاة وسدنة المدفع في المدفعية من الذين كانوا يخدمون مدتهم في ألمانيا. وكان هناك سلالة شريرة من المجرمين في البزة العسكرية، مثل تجار المخدرات في بطاريتي، الذين كانوا أكثر من راغبين في استغلال هذه الحالة السيئة.

تخلصت من التفاحات الرديئة في وحدتي. لم أكن أستطيع أن أغير كل الجيش، ولكنني كنت قادراً على إعادة إصلاح الوحدة الصغيرة التي أقودها.

وعندما هدأ الاضطراب الأول، وجدت أنني أمتلك وقتاً أطول لتدريب البطارية حسب المستويات القتالية. أمضيت وقتاً طويلاً مع فصيلة الصيانة، لأتأكد أن مدافعنا ذاتية الدفع ستكون قادرة على الصمود لقسوة القتال، وللتلال الموحلة في مناطق التدريب في غرافينوهر.

كان رؤساء مدافعنا رقباء معلمين من الجيش النظامي، وكانوا راغبين في التعلم، وفي القيام بواجباتهم. كانوا مثل أولئك الذين عملوا سدنة للهاوتزر في في [illegible] ـبون بقلوب طيبة. لقد كانوا بحاجة إلى منحهم المسؤولية وأن يقفوا ليحاسبوا عنها. ويوماً بعد يوم شجعتهم. وأقررنا مستويات عالية، واستطعنا تحقيقها. صارت الوحدة سريعة ودقيقة.

ولكن كان علينا أن نعمل أكثر من مجرد إطلاق النار من المدافع بسرعة وإصابة الأهداف بدقة. فنحن نساند وحدات مدرعة ومشاة آلية عالية الحركة. ومع كون مدافعنا ذاتية الحركة، فقد كنا أبطأ، وأقل خفة في الحركة بكثير من المشاة والقوات المدرعة. وكانت مشكلتنا تتعقد بسبب حقيقة أخرى وهي أن مدافعنا ذاتية

الدفع الهاوتزر لم تكن مجهزة بأجهزة الإرسال اللاسلكي. لقد حاولنا أن نتبع تشكيلات المناورة، وكنا نؤشر على التحولات في الاتجاه باستخدام الأعلام على الأسلوب القديم. ومع كل ذلك، فالجميع كان يعلم أن المدافع لا تستطيع أن تباري الدروع أو المشاة الآلية بسرعتها. فلماذا نبذر النقود بإعطاء أجهزة الإرسال اللاسلكي لرجال المدفعية؟

ولم يكن ذلك منطقياً عندي. ففي الوحدة 5-60، وناقلات الجند المدرعة للمشاة ومجنزرات الهاون والبندقية عديمة الارتداد كذلك، كانت كلها تشترك في الاتصالات، وبدا لي أنهم كانوا فريقاً قوياً. وعندما اقترحت على الجيش أن الهاوتزرات يجب أن تزود بأجهزة إرسال لاسلكي، لم أتلق إلا القليل من التشجيع.

وهكذا،فعندما وصلت إلى البيت متأخراً جداً في إحدى الليالي ووجدت كاثي ما تزال مستيقظة، سلمتها فهرساً مصوراً (كتالوجاً) من شركة سيرز. وسألتها: "ماذا ترين؟"

"راديو مَوجَةِ المواطن (سي. بي.) يا توم؟ إنه يساوي تقريباً أربعين دولاراً تقريباً. هل فعلاً تحتاج إلى واحد منها؟"

??ليس واحداً، يا عزيزتي. عشرة. واحد لكل مدفع، وواحد لي، وواحد لكلٍ من مركز توجيه النيران، والضابط التنفيذي، والرقيب الأول.

ونظرت إلي كاثي. وكان استبدال قمم السيارات المكشوفة قد استنفد مدخراتنا. وقالت: "لا نملك النقود."

"لدينا اتحاد الإقراض."

بعد ثلاثة أسابيع، في مسير على الطريق إلى غرافينوهر، توقف الرتل عندما انزلقت ناقلة جند مدرعة للمشاة عند منعطف موحل. وكان الوقت بعد الغروب عندما أرسل ضابط عمليات سرية الخيالة باللاسلكي أن الطريق قد تغير. وأمسكت بجهازي الجديد القريب راديو موجة المواطن وناديت رؤساء المدافع.

واتخذت بطارية الهاوتزر تحويلة الطريق الموصوفة، ووصلت إلى غرافينوهر مع دبابات سرية الخيالة لا خلفها.

وفي أثناء الأسابيع التالية، وازينا وتساوينا مع كل حركة من قوات المناورة. وفي إحدى الليالي، عندما سحبنا المدافع إلى معسكر دفاعي، وهو موقع تقليدي تحيط به الدروع، وصل المقدم هوسمر في الجيب. "ديناصوراتك القديمة كانت رشيقة الحركة تماماً هناك اليوم."

"أنت لم تر شيئاً بعد، يا سيدي."

وبعد أن وصلنا إلى كاسيرن، أخبرت الجند بأن دعوة البيرة ستكون علي. كنت ما زلت أمتلك حوالي ثلاثين دولاراً من نقود اتحاد الإقراض في محفظتي. لقد أحدثت أجهزة اللاسلكي (الراديوات) اختلافاً كبيراً، وبدأ الجند يعتادون الربح.

وربما كانت المعنويات تسير نحو التحسن، ولكن كان ما يزال علي أن أتعلم الكثير عن القيادة. في ذلك الصيف، شكا لي أحد ضباط البطارية جندياً شاباً، سأسميه غارسيا. كان واحداً من أفضل جنود البطارية، ولكنه تدهور إلى جحيم التدمير بسرعة.

وقال لي الملازم: "إنه دائماً متأخر عن تشكيل الصباح، ويحتاج رقيب فصيلته إلى حمله ليحلق وليلبس زياً نظيفاً. وفي الليلة الماضية شتمني. إنني أوصي بإحالته إلى المحكمة العسكرية، سيدي."

وناولني الملازم أوراق غارسيا وملفه الشخصي. كان يوجد شيء غريب هنا: غارسيا عاد إلى التطوع قبل ستة أشهر، وكان قد نجح في الدبلوم العام المعادل من أجل دبلوم المدرسة الثانوية، وكان قد حاز على ترشيحه للقب جندي المقر. وقلت للملازم: "سأتحدث معه."

وعندما دخل غارسيا متثاقلاً إلى مكتبي كان واضحاً أنه لم يكن جندياً سعيداً. وحدق بي بعد تحية بلا مبالاة: "أردت أن تراني؟" بدون كلمة سيدي، ولا يا نقيب.

ولم أكن سألعب لعبته. "ما الذي جرى لك، يا غارسيا. كنت عسكريا ممتازاً. ولكن قائد فصيلتك يوصي بأن نطردك من الجيش. ما القصة؟"

درس غارسيا تعابير وجهي، وانقبض وجهه، واحمر من الغضب: "أتريد حقاً أن تعرف؟"

"دعنا نسمعها."

"قبل أربعة شهور أرسل الصليب الأحمر يخبرني أن جدتي ماتت. في شرق نيويورك، في بروكلين. "وبدأ يبكي". جدتي هي التي ربتني مع أخي الصغير. ذهبت إلى سلسلة القيادة حسب التسلسل وقدمت من أجل الحصول على إجازة طارئة مثلما كان يفترض أن أحصل. وقالوا لا يمكن الاستغناء عني... وأن الفريق يحتاج إلي. الطلب مرفوض."

ومسح غارسيا عينيه، ثم حدق في الأرض.

"كنت قلقاً على أخي "وبدأ بالنشيج ثانية.

"على كل حال، وضعوه في بيت للرعاية. وبعد ذلك، في الشهر الماضي أرسل الصليب الأحمر مرة ثانية. إن مجرماً من بروكلين قد اغتصبه وقطع عنقه. أردت أن أذهب إلى الوطن لأدفنه، ولكن الملازم وللمرة الثانية قال إن المنظمة كانت أهم. الطلب مرفوض."

كيف يمكن لشيء مثل هذا أن يكون قد حدث في بطارية من 180 جندياً من دون أن أسمع قطعياً عن ذلك؟.

عندما نظر غارسيا إلى أعلى كان وجهه حاراً بالألم والبغضاء.

"يا نقيب، تستطيع أن تأخذ المنظمة: البطارية، وسرية الخيالة وجيش أمريكا الملعون من الله، وكل البلاد... الزفت، وتدخلها في دب..."

انهمرت الدموع على خديّ أنا. وخرجت من خلف طاولتي ووضعت ذراعي حوله. "ما حدث هو غلطتي. أعرف أن الأمر متأخر جداً الآن، ولكنك الآن قد

حصلت على إجازتك. اذهب للوطن. وخذ المدة التي تحتاج إليها. وعندما تعود، وإذا كنت ما تزال تريد الخروج من الجيش، فسوف أعمل بالتأكيد على أن تحصل على الفصل المشرف."

في الصباح التالي، جمعت الضباط وقدامى ضباط الصف في مركز عمليات البطارية الضيق.

وبدأت بالقول: "في الجنود الكثير من الأجزاء المتحركة. وهم يحتاجون إلى صيانة منتظمة، إنهم بشر، لا آلات. إنهم سيقومون بأشياء مدهشة إذا كانوا يعرفون أنكم تهتمون بهم." وتذكرت محبة رجال الضابط لي آلي، والاحترام الذي كنا جميعنا نكنه للمقدم أنتيلا.

وقصصت عليهم قصة غارسيا بدون توجيه اللوم لأحد غير نفسي "ما تعلمته هو أن كونك مسؤولاً لا يعني تلقائياً أنك تعرف ما يجري. هذا سوف يتغير في هذه البطارية."

وأحضر كاتب البطارية كدستين من ملفات الأفراد. واخترت قبضة من السجلات الفردية. "لن أذهب إلى البيت كل ليلة إلى أن أنهي قراءة عشرين من هذه السجلات. ومع حلول الوقت الذي سينتهي فيه هذا التمرين، سأكون قد عرفت الاسم الأول لكل جندي، ومدينته في الوطن، وشيئاً عن أسرته. وأتوقع منكم أن تفعلوا الشيء نفسه."

وأومأ الرجال الجالسون إلى الطاولة برؤوسهم.

"إذا جاء إليك عسكري بمشكلة فتذكر هذا: إنها مشكلتك، وهي مشكلتي، لن نخسر جنوداً جيدين لأننا لا نستطيع أن نهتم بهم ولو اهتماماً قليلاً... اهتماماً كالزفت بوصفهم بشراً."

التزامي للجند كان سيعني قضاء وقت أقل مع أسرتي. كانت كاثي متفهمة، ولكن عدم رؤيتي لجاكي كثيراً كان قاسياً علي. فقد كنت أذهب إلى العمل قبل أن

تستيقظ في الصباح، وأعود إلى البيت بعد أن تكون قد نامت في الليل. كان لدى كاثي دائماً وجبة ساخنة تنتظرني حتى عندما لا أتمكن من العودة إلى الشقة إلا عند منتصف الليل. كانت هي والزوجات يرتبطن بطريقة خاصة ليعوضن عن غياب أزواجهن. لقد كنت دائماً أحترم كاثي من أجل الطريقة التي تعتني بها بعائلات الجيش.

كان صباحاً من تلك الأيام في منتصف الشتاء في نورمبرغ عندما يتجمد الضباب على حصباء الشوارع. والوقت هو فجر يوم الاثنين في 20 من شهر كانون الثاني/ يناير 1975 . كنت أتثاءب، وخرجت أمشي عبر فناء ثكنة ميريل القديمة الضخمة من كاسيرن إلى مقر قيادة الفوج. وفنجان القهوة كان قيد الطلب بلا شك.

قبل اثنتي عشرة ساعة، كنت أنا وكاثي في فندق نورماندي في باريس، نستمتع بأول إجازة في سنوات.

"العقيد يريدك أن تعود إلى هنا في الساعة 0700 صباحاً،" كان هذا ما شرحه المقدم تشارلي زيب، الضابط التنفيذي للفوج، "وتتولى قيادة سرية الهندسة المدرعة الرابعة والثمانين."

سقنا السيارة عبر طرق السيارات تحت المطر وعبر الطرق السريعة تحت الثلج كل الليل في طريقنا إلى بافاريا. هذا عن إجازتي. وكان يجري تعييني في واجب آخر، مع ذلك، في فوج الخيالة المدرع الثاني. لقد توليت قيادة بطارية الهاوتزر وخدمت بصفة ضابط عمليات سرية الخيالة الأولى في بندلاخ، والعقيد جون هوداشيك قائد فوج الخيالة المدرع الثاني، أحضرني إلى هنا لأكون ضابط عملياته المساعد في نورمبرغ قبل خمسة شهور. كنت أتعلم الكثير جداً عن الدروع والمشاة، وعن حرب المناورة. وكاثي وأنا كنا مستمتعين بعمل الضابط الركن بدون ضغط القيادة. حتى إنني كنت أستطيع أن أصل إلى البيت في معظم الليالي لأرى جاكي قبل أن تذهب إلى فراشها. ولكن ذلك يوشك على النهاية.

قلت للعقيد هوداشيك ونحن نشرب كوباً من القهوة: "لا أعرف الكثير عن المهندسين، يا سيدي."

وقال: "أنت تعرف كيف تقود الجند، يا توم. وتلك السرية بالتأكيد تماماً تحتاج إلى قائد."وكانت سرية الهندسة المدرعة الرابعة والثمانين هي الحالة الميئوس منها في الفوج. كانت مليئة بالساخطين، وكان معظمهم من المسحوبين بالقرعة العسكرية الذين ينهون خدمتهم.

وقال العقيد هوداشيك: "إنهم على وشك أن يكونوا أقرب إلى الغوغاء من أي مجموعة سبق لي أن رأيتها في بزة عسكرية."

لقد أعفى قائد السرية واستدعاني لأحل محله. وتوليت القيادة في حفل فطور في قاعة مطعم السرية، ثم مشيت إلى داخل غرفة المناوب. وعندما دخلت لم يكد كاتب السرية يلمحني من أعلى مجلته بنتهاوس(*).

وأمرته: "أحضر لي قادة الفصائل والرقيب الأول. أنا قائدكم الجديد."

لا بد أن شيئاً ما كان في لهجتي ليحركه ويحفزه: "نعم سيدي." ورمى المجلة وأمسك بالهاتف.

"حالاً، سيدي."

وما تلا ذلك كان يوماً طويلاً، مضنياً، قضيته أتحدث فردياً مع حشد من صغار الضباط، ورقباء الفصائل، وقدامى ضابط الصف الآخرين. كان فيهم العديد من القادة المحتملين، ولكنهم كانوا متردّدين ومثبطي العزيمة، غير واثقين من سلطتهم. وكانت السرية من قبل قد خفضت إلى حوالي 70 بالمائة من قوتها من خلال برنامج الفصل السريع، وهو إجراء استئصال إداري، ومن خلال المحاكم العسكرية.

وقال الرقيب الأول: "والأشخاص الذين بقوا لدينا لا يعيرون أدنى... زفت من الاهتمام، سيدي."مضيفاً أن العديدين من الجند المتبقين كانوا قد حددت حركتهم في الموقع عقاباً لهم على الإخلال بالانضباط."

(*) مجلة موضوعات وصور ساقطة.

وقلت: "سوف نعمل على تحسين ذلك، يا رقيب أول."

كان الوقت متأخراً عندما غادرت المكتب. وبدلاً من قيادة سيارتي إلى البيت، قررت أن أجول في الركن الخاص بالسرية من ثكنة كاسيرن. وكانت آخر وقفة لي في الدور الرابع السيئ السمعة.

مشمع الممر كان وسخاً. وكانت هناك كتابات فاحشة تتنافى مع الآداب العامة على الجدران. وكنت أستطيع أن أشتم الحشيش.

ومشى نحوي عسكري طويل، قوي البنية في ملابس عمل قذرة وبتعبير متجهم في وجهه.

وقال لي وهو يمر بجانبي: "أفعل بك الفاحشة..."

لم أستطع أن أصدق ما سمعت. وانفتلت حولي لأرى مع من كان يتكلم. ولم يكن هناك أحد آخر في الممر.

وفجأة تصورت كل أولئك العسكر الذين فقدوا حياتهم وهم يخدمون، ويقومون بواجبهم في فيتنام. هذا الغر السافل الساخط لم يكن يستحق أن يلبس البزة نفسها. وفقدت السيطرة على نفسي.

وقلت: "هيه، أنت."

واستدار الجندي ليواجهني.

وأمسكت كتفيه وضربته بالجدار، وأنا أحدق في عينيه. ووقف هناك كما لو كان في صدمة وأنا أمشي مبتعداً.

كان العقيد هوداشيك ما يزال في مكتبه، ينهي أوراق اليوم، عندما قرعت الباب.

وقال: "توم، كيف مر اليوم الأول؟"

"يجب علي أن أبلغ بأنني ضربت عسكرياً قبل قليل، سيدي."

وأومأ العقيد برأسه عابساً، وتنهدت. عشر سنوات وانتهت إلى هذا. الضباط لا يضربون الجنود. وسأكون محظوظاً إذا انتهت المحكمة العسكرية بفصل مشرف. وعلى أي حال، فإن مستقبلي في العسكرية قد انتهى.

"ماذا حدث؟"

وشرحت له.

وعبس العقيد هوداشيك. لا يا نقيب، لا تستطيع أن تضع يدك على الجندي.

"نعم، سيدي."

وأشار لي: "اذهب وقف في الركن."

وذهبت إلى ركن مكتب العقيد هوداشيك وحدقت فيه.

"أنت لا تفهم، يا نقيب. قف في الركن ووجهك إلى الجدار."

واستدرت وواجهت الجدار. مر أقل من دقيقة.

"اذهب إلى البيت، يا توم. خذ قسطاً من النوم. وغداً باكراً، أريدك مع سريتك. لديك كثير من العمل لتقوم به مع أولئك الجنود."

وقوف في الركن: عقوبة استثنائية لأحوال استثنائية. وعندما غادرت كاسيرن، فكرت في إيرك أنتيلا بين المباني المدمرة على طول قناة كنه دوا. ما يزال الولاء يسير صعوداً ونزولاً في سلسلة القيادة في الجيش.

في اليوم التالي انطلقت في إعادة بناء هذه الوحدة اليتيمة. كان الجند الواقفون في تشكيل ذلك الصباح مجموعة ذات منظر مؤسف. شعر طويل، ملابس عمل مبقعة ووسخة، أحذية لا تلمع. وكثيرون لم يكلفوا أنفسهم عناء أن يحلقوا ذقونهم، لعدة أيام، كما يبدو من منظرهم.كان يمكن للرقيب المعلم كيتل أن ينفجر من الغضب.

وسألت ونحن نسير بين الصفوف: "يا رقيب أول، هل ترى شيئاً غير عادي؟"

"نعم، سيدي. إنهم يبدون مثل... الزفت. ولكن ذلك ليس غير عادي بالنسبة إلى هؤلاء الرجال."

ووجدت رجلاً في مقدمة الصف بقصة شعر مناسبة، وهو نظيف وقد حلق ذقنه، ويقف بملابس عمل نظيفة وأنيقة، وبحذاء عسكري لامع. فكرت في سام لونغ. عندما كان حرس الشرف يبدو متميزاً بشكل خاص في حفل، كان يطلب من سكاغ أن يكتب لنا إجازة قصيرة. وتذكرت لي آلي عندما كان يرسل أفضل جنوده إلى عطلات نهاية أسبوع طويلة.

وقلت للجندي المرتب: "تبدو خيّالاً جيداً. خذ أسبوع إجازة."

وسأل الشاب: "سيدي؟"

"حصلت على أسبوع إجازة. اذهب وتزلج في غارمش. اذهب واسترح فقط. وافعل أي شيء تريد."

وفي اليوم التالي كان هناك ثلاثة آخرون من الجنود يرتدون بزات نظيفة. وأحذية لامعة. وقلت: "تبدون كالجنود. خذوا أسبوع إجازة."

لم تكن هي بالضبط الطلقة الفضية، الترياق، ولكن هذا المدخل كان له أثر بطيء وثابت. وأدركت أنني كنت سأحتاج إلى كل من الجزر والعصي، وستكون العصي مهمة مثل أهمية الجزر. بعد أربع محاكمات عسكرية اختفت رائحة الحشيش من الدور الرابع من كاسيرن، وانخفض إلى الصفر عدد العسكر الذين حددت حركتهم في الموقع.

ولكنني كنت أعرف أن جعل هؤلاء الرجال يظهرون ويتصرفون مثل الجنود كان جزءاً فقط من واجبي بصفتي قائداً. فهم أيضاً كان عليهم واجبات ليقوموا بها. إن المهندسين هم الرافعون لأثقال الجيش، وسرية الهندسة المدرعة تقوم بأعمالها تحت النار، فهي تنقذ الدبابات المعطوبة، وتهدم العوائق في الطرق، وتزيل بالجرافات استحكامات العدو وخنادقه. وكانت إحدى الوسائل الأساسية للسرية عربة هندسة

للقتال، وهي في الأساس دبابة ام-60 ولها في المقدمة نصل جرافة مدرع عريض، ولها رافعة ذات صارٍ هيدرولي قابل للسحب، وعليها مدفع قصير السبطانة على البرج من عيار 165 ملم من أجل فتح ثغرات في الحواجز. وتمتلك السرية اثنتين من هذه العربات، ولكن أيا منهما لم تشتغل في مدة تزيد عن عامين.

أمضيت الكثير من الوقت مع الميكانيكيين. وجلت على السرية أفتش عن جنود كانوا جيدين بمهاراتهم اليدوية. وأقمنا منافسة صغيرة: أول فريق يستطيع جعل عربة هندسة القتال تشتغل على نحو كامل سيحصل على إجازة ثلاثة أيام. وكان ارتباطا فعلياً، وأعطيت كل السرية إجازة نهاية أسبوع طويلة. ولتعزيز الزخم الإيجابي، عملت مع مقر قيادة الفوج ومع الشرطة الألمانية لترتيب قافلة من السرية تمر مباشرة من خلال مركز مدينة نورمبرغ إلى منطقة التدريب في فوخت. وقد قادت الرتل عربة هندسة القتال التي دهنت حديثاً. لقد بدا الجند يقظين. وعندما قام أطفال المدارس الألمان من الشوارع الجانبية بالتصفيق والهتاف، ابتسم هؤلاء الجنود الأمريكيون باعتزاز. لقد عدنا إلى العمل.

مع شهر كانون الأول/ ديسمبر 1975، كنت في عملي الرابع في الفوج، مرة أخرى كنت نقيباً يتولى عمل رائد في مركز العمليات: رجل مدفعي يتولى المسؤولية عن تدريب الرماية المدفعية للدبابات. في إحدى الليالي الثلجية، أخذت بضع ساعات من العمل وغادرت ميدان رمي محلي لأذهب إلى البيت وأغير ملابس العمل بأخرى جافة وأغير الحذاء. كانت جاكي في ملابس نومها، متكورة تحت لحاف، على أريكة. وكنت قد وعدت أن أعود مبكراً ذلك اليوم، وقد انتظرت كاثي إلى أن حان موعد نوم جاكي، ثم قامت مباشرة وزينت شجرة عيد الميلاد من دون حضوري. وازدردت شطيرة لحم خنزير وكوباً من القهوة، وجذبت معطفي الميداني المبلل واتجهت نحو باب الشقة. "سوف أعود غداً مبكراً، وعد."

واسترقت كاثي نظرة سريعة من خلال ستائر النوافذ على دوامات الثلج الرطب التي تدور عند أضواء الشارع وقالت: "يا له من مساء جميل لتمرين ميداني." ثم قبلتني قبلة ليلة سعيدة.

وقلت وأنا أحاكي جورج سي. سكوت(*) بدور جورج باتون(**):

"كان الله في عوني: فأنا فعلاً أحبها هكذا."

كانت نكتة مشتركة. ولكنني وأنا أزيح الثلج عن الواجهة الزجاجية الأمامية للجيب، أدركت الحقيقة العميقة التي تقوم عليها هذه الكلمات. فأنا فعلاً أحببت أن أكون عسكرياً، وأساعد في بناء جيش جديد من رماد فيتنام.

انقضت خمس سنوات تقريباً منذ أن نلت درجة البكالوريوس. وفي 1كانون الثاني/يناير سيصل التزامي الرسمي بالخدمة إلى نهايته. ولكن فكرة العودة إلى أن أكون مدنياً كانت غير مريحة.

واقترحت على كاثي عندما تحدثنا حول هذا الموضوع في وقت سابق من ذلك الأسبوع: "دعينا ننتظر ونرى ماذا سيحدث؟" ووافقت كاثي وقالت: "سنرى فقط ماذا سيحدث؟"

وستصير هذه الكلمات بعد ذلك نكتة مشتركة أخرى.

بعد ست سنوات ونصف، كان حذائي يغوص عميقاً في وحل الربيع في ميدان تدريب آخر في ألمانيا الغربية. كنت مقدماً قائداً للكتيبة الثانية من وحدة مدفعية الميدان الثامنة والسبعين، وهي وحدة هاوتزر عيار 155 ملم ذاتية الدفع من الفرقة المدرعة الأولى. وكاسيرن التي تخصنا هذه المرة كانت في المدينة البافارية بامبرغ، ولكننا قضينا الكثير من السنة خارجين في تمارين ميدانية.

بعد أن تركت فوج الخيالة المدرع الثاني في العام 1976، حضرت دراسة في كلية الأركان للقوات المسلحة، وهي مدرسة عالية للضباط المحترفين، وخدمت في وزارة الدفاع (البنتاغون). وقد أعطتني الأعمال التي أسندت إلي في "المبنى" تعليماً حقيقياً في الجيش وفي سياسات واشنطون.

(*) ممثل أمريكي (١٩٢٨ - ١٩٩٩م).

(**) جنرال أمريكي (١٨٨٥ - ١٩٤٥م) قاد الجيش الثالث في الحرب العالمية الثانية واكتسح فرنسا وألمانيا.

وعندما كنت برتبة رائد وأنا أخدم في مكتب المفتش العام للجيش بصفة "محقق"، تعلمت أن الضباط الكبار أنفسهم لم يكونوا محصنين ضد الخسة الأخلاقية والفساد. حققت مع جنرال كان يسكر كل يوم بعد العصر على مشروب جن نادي الضباط، ثم يأمر الشرطة العسكرية أن تؤدي التحية لكلبه. وجنرال آخر كان لديه مخطط ذكي لتلقي نسبة مئوية مرتبة مع مقاول فاسد للدفاع، وخبأ ثروة في حسابات مصرفية خارج البلاد. ثم كان هناك الجنرال الذي كان يختار السكرتيرات على أساس مظهرهن لا على أساس قدراتهن المكتبية. وبالنسبة إلى رائد شاب، كان هذا العمل مثيراً للاهتمام: ففي هذا العمل تعلمت أن أفهم تلك النظرة اليائسة في عيني الرجل المذنب حين يدرك أنه قد وقع.

بعد ثمانية عشر شهراً بعمل محقق عام، عملت لرئيسي أركان الجيش، الجنرال بيرني روجرز والجنرال شاي مايرز، وكان عملي هو أن أساعد في إعدادهما لأداء شهادة أمام مجلس الشيوخ. وقد اكتشفت أن بعض أعضاء مجلس الشيوخ، إذا جوبهوا بالاختيار بين المصالح الوطنية وبين مصالح مناطقهم الانتخابية، عندما يأتي الأمر إلى تقسيم المنافع على الأنصار والناخبين في عقد أسلحة، على سبيل المثال، أو تقوية قاعدة في المنطقة، اكتشفت أن أولئك الشيوخ كانوا راغبين رغبة كاملة في أن يصوتوا لجماعتهم في مناطقهم الانتخابية في بلدهم. لقد نضج تومي فرانكس بيروقراطياً في أثناء تلك السنوات الأربع. مثالية الشباب عززتها ذرائعية السياسات.

عندما حان الوقت الذي عدت فيه إلى ألمانيا في 1981، كنت سعيداً بالرجوع إلى الجند. فقيادة كتيبة واجب من أكثر الواجبات إعناتاً ومطالبَ، ولكنه من أكثرها جزاء أيضاً، في الجيش. وكنت محظوظاً أن أقود الوحدة 2-78 لثلاث سنوات بدلاً من السنتين المعتادتين. وبرهن لي جنودي الخمسمائة والخمسة والستون أن الجيش المكون كله من المتطوعين كان جيشاً ناجحاً. ولم تبق المخدرات في صفوف الجند مشكلة بعد ذلك، واستطاع برنامج شامل على نطاق الجيش للاختبارات العشوائية

أن يتعرف بالمتعاطين للمخدرات، الذين كانوا يفصلون من الخدمة بسرعة. والعداوة العلنية التي كانت بين الأعراق اختفت، عندما استطاع الرقباء والضباط السود والهسبان أن يتولوا أماكنهم المستحقة لهم في الجيش. وفي هذه المنطقة الحساسة كان الجيش يقود تطور المجتمع الأمريكي.

وأدرك الجند مرة أخرى أن ارتداء البزة العسكرية كان شيئاً يستطيعون أن يفخروا به. وإذا توافرت لهؤلاء الجنود القيادة الجيدة، فإنهم سيقضون الليالي ونهايات الأسبوع في الميدان في تمارين الرمي الحي الخطرة، وفي أي طقس، ويأكلون الإعاشة-ج ويختطفون النوم وهم تحت المعاطف الواقية التي تنقط من المطر عندما يستطيعون، ويعملون بأداء عالٍ إلى مستويات متعبة ملحاح.

وعندما تحسنت نوعية الجند بالضبط، كانت تقانتنا لميدان المعركة الآن متفوقة بشكل فعال جداً على الأسلحة والتجهيزات التي سبق لي أن أتقنتها عندما كنت ضابطاً شاباً. لقد تم العمل على "استقرار" الدبابات ام-60 في الفرقة كي تطلق النار وهي تدرج فوق أرض وعرة، وكنا قد بدأنا في وضع مناظير الرؤية الليلية في الميدان. وفي غضون سنتين، سيكون كثير من الفرق الأمريكية المدرعة مجهزة بالدبابة الجديدة الرئيسية للمعركة المعروفة باسم ام-1 أبرامز، وهي قفزة نوعية فوق أي شيء في المخزون السوفيتي. ولم تكن أبرامز تستطيع فقط أن تطلق النار وهي تهتز عبر الأرض غير المستوية، فإضافة إلى ذلك كان يستطيع منظارها الحراري والسيطرة الحاسوبية على الرمي أن يتتبع دروع العدو نهاراً أو ليلاً، وفي أي طقس، وعلى مدى طويل.

وكانت الصواريخ (تو) أنبوبية الإطلاق، وبصرية المتابعة، وسلكية التوجيه المضادة للدبابات هي الآن الأسلحة النظامية، وكانت محمولة على سيارات الجيب، وعلى ناقلات الجند المدرعة وفي الطائرات العمودية. وكانت المدفعية على وشك أن تدخل المقذوف الثوري عيار 155 ملم نحاسي الرأس، الذي يتبع حزمة شعاع ليزر إلى هدف يقع على بعد عشرة أميال.

وكان الحاسوب يطل في كل أنحاء الجيش. وكانت كتيبتي مجهزة بحاسوب تناظري رقمي لمدفعية الميدان، وبخزانة زجاج ليفي أخضر مع لوحة مفاتيح فوق صندوقه. وبأضوائه الملونة التي ترمش وتصدر أصواتاً قصيرة منبهة: بيب، كانت تبدو مثل إنسان صديق آلي من أفلام الخيال العلمي، ولذلك أسميناه "فريدي فاداك" نسبة للحروف الأولى من اسمه الوظيفي. وهذه الأداة ثوّرت الطريقة التي كانت تتقرر بها حلول الرمي بالنسبة إلى المدفعية: فعندما يكون مركز توجيه النيران قد طبع فيه إحداثيات الهدف، يقوم الحاسوب بقذف ارتفاعات الأنبوب وسموته (جمع سمت) إلى المدافع. لم تبق هناك حاجة إلى الجداول الورقية واللوحات والدبابيس بعد ذلك. وكنت أستمتع بعرض النظام على أصدقائي في الدروع وفي المشاة، الذين كانوا ما يزالون يعتقدون أن المدفعية فرع قديم الطراز.

ومع الرغبة القوية في التجديد التي ورثتها من أبي، انطلقت في وضع فريدي فاداك في أفضل استخدام ممكن في حرب المناورة. وقام الرقيب الأول للقيادة عندي وهو رجل فاهم، اسمه دون مان، والضابط الجديد للعمليات عندي، النقيب مايكل هيز، بإلقاء نظرة سريعة على مستودعات السيارات في كل ألمانيا ووجدا شاحنة صيانة احتياطية. ونزعنا القسم الداخلي الصندوقي الشكل من طاولات العمل وصناديق العدة، وبنينا مركز عمليات تعبوي متنقل حول الحاسوب "توك" نسبة للحروف الأولى من اسمه، وطبيعي أننا أسمينا العربة لعبة توك (توك-آ-توي) على اسم العربات المتحركة القصيرة المكتنزة المعروفة باسم تونكا توي والعزيزة عند الأطفال في منطقة الإسكان التي كنا فيها. ومع توك-آ-توي، كانت الكتيبة تستطيع أن تتحرك بأسرع بكثير مما كان ممكناً لها قبل عام فقط.

وكنت معجباً، أكثر من أي وقت مضى، بالجمع بين السرعة وقوة النيران. وكانت العقيدة العسكرية الأمريكية تتطور في تجسيدها الأخير، كانت تعمل على تطوير رد سريع، غير تقليدي على توقعات غزو يقوده السوفيت على ألمانيا الغربية. ففي هذه المعركة "الجوية الأرضية"، سوف تقوم القوات الأمريكية بالتخلي عن

مواقعها الدفاعية الثابتة، وتضرب أجنحة العدو، ثم تقوم بعدئذ، وهي مدعومة بالطائرات العمودية الهجومية وبالقدرة الجوية، باختراق نحو مؤخرة العدو وتهاجم منه مراكز القيادة والسيطرة وخطوط الإمداد.

كان العقيد وين داوننغ، قائد لواء المشاة الذي أتبع له، يمتلك سنوات من الخبرة في القوات الخاصة وقوات النخبة، وأمضينا معاً ساعات طويلة نناقش فيها ميادين المعركة في المستقبل. وقد أقنعني أن الزمر الصغيرة من قوات العمليات الخاصة العالية المهارات، التي يتم إدخالها عميقاً خلف خطوط العدو ستلعب دوراً مهماً.

وأنا أقرأ المجلات العسكرية في وقت متأخر في الليل في مجنزرة قيادتي، صوّرتُ ميادين المعركة تلك: تبدو فوضوية، وستكون فعلاً مركزة تركيزاً ضيقاً، وهي مؤثرة تأثيراً مدمراً.

كنت أريد مكاناً في هذا الجيش الجديد. وكان كبار ضباط الفرقة ينظرون إلى كتيبتي نظرة عالية، ولكن ذلك لم يكن ضماناً لأرفع إلى عقيد وأعطى فرصة في قيادة لواء. وكان هيكل وحدات القتال يتغير. فالصواريخ والذخائر الجديدة الموجهة بدقة سوف توسع قريباً المدفعية القوسية. وكان هناك زيادة مفرطة في أعداد الرواد والمقدمين المتبقين من الحشد لفيتنام. وانطبقت قاعدة "إلى الأعلى أو إلى الخارج": معظم المقدمين سوف يتقاعدون بعد خدمة عشرين عاماً.

وكان لي ولكاثي مناقشاتنا المألوفة حول المستقبل.

وبدأت: "سيكون علينا أن...."

وقالت مكملة فكرتي: "...ننتظر ونرى."

كان الالتحاق بكلية الخدمة العليا هو مفتاح التقدم. وكانت عيني، مثل الكثيرين من نظرائي، على كلية الحرب في الجيش في كارليزل في بنسلفانيا، قرب غيتسبرغ. وقامت لجنة باختيار الذين سيلتحقون في العام القادم، ولكن قائمة

أسماء أولئك المختارين كانت سراً محروساً حراسة شديدة إلى أن تعلن وزارة الدفاع قائمة الأسماء. وكان ربيع العام 1984 زمن التوقع واللايقين لأسرة فرانكس. هل كان لنا مستقبل في الجيش أم لا؟ و... "انتظر لتر."

وبعد ذلك في أصيل يوم من الأيام في أثناء قيادة في عاصفة مطرية، وقد كانت الكتيبة تتدرب في غرافينوهر، جاء اللواء توم هيلي، قائد الفرقة، ووقف في الجيب الخاص به، ودخل إلى توك -آ- توي لأجل تلقي إيجاز عنه. وقدمت له القهوة مع كعكة شوكولاتة بالبندق من الحلوى المنقوشة المثلجة، ثم وصفت التدريب الذي كنا نديره.

وبدا اللواء هيلي مسروراً. وابتسم ابتسامة عريضة وهو يصعد راجعاً إلى سيارته الجيب ليغادر: "كعكة عظيمة، يا توم. تأكد من إحضار كاثي لوصفة الكعكة إلى كارليزل."

لقد تم اختياري لكلية الحرب. وابتسمت، بل وفي الوقت نفسه كأني بكيت. وبدا لي وكأن أسرة فرانكس كانت على وشك أن تجعل الجيش وظيفة لها.

وأننا سنصير أسرة حقيقية مرة أخرى لمدة عام.

هذه النوبة الثانية من الواجب في ألمانيا أبقتني في الغالب بعيداً عن البيت، ومرة أخرى دبرت كاثي حياة أسرتنا. كانت جاكي قد بدأت السباحة التنافسية في سن السابعة عندما كنا نعيش في فيرفاكس في فيرجينيا، واستمرت في التفوق في الرياضة مع فريق السباحة الألماني المحلي. وصارت جاكي أيضاً طلقة اللسان باللغة الألمانية عندما كانت تدرس في مدرسة ألمانية للبنات. وكنت أذهب إلى اجتماعاتها السباحية ونشاطات مدرستها عندما كنت أستطيع، ولكن كاثي قامت برفع الأثقال طوال السنوات الثلاث الماضية. وعلى الرغم من أن والد كاثي توفي في الحقيقة في هذا الوقت، فإنها قد وهبت نفسها لعائلات الجيش، وخدمت رئيسة لنادي الزوجات في بامبرغ. وعندما غادرنا الكتيبة، تلقت جائزة من قائد الفيلق الثامن تقديراً لخدمتها. وكنت فخوراً بها إلى حد لا مزيد عليه.

في شهر تموز/يوليو 1985، بعد سنة في كلية الحرب، عينت في فورت هود، في تكساس، بصفة نائب ضابط العمليات للفيلق الثالث، الذي كان يضم معظم الفرق الثقيلة الموجودة في قواعد الولايات المتحدة. وكان قائد الفيلق هو الفريق كروسبي "بتش" سينت، وسبق له أن كان قائد الفرقة الأولى المدرعة في شهورنا القليلة الأخيرة في ألمانيا، وأتيح لي أن أعرفه معرفة جيدة. ولكن اختياره لضابط مدفعية ليشغل عملاً مهماً في العمليات كان أمراً غير مألوف قليلاً. ولكنني كنت قد عملت بشكل وثيق بما يكفي مع الدروع والمشاة في أثناء السنوات العشرين الأخيرة وتمكنت من تعلم الكثير عنهما. وعلى العموم كنت أحظى بالاحترام في وسط مجتمع المناورة بصفتي رجلاً مدفعياً مستقلاً في فكره كان يستطيع أن يجد طرقاً لحل المشكلات.

وفي غضون أشهر قليلة من وصولي إلى فورت هود، شرعت في تصميم ميدان لتدريب رجال المدفعية على إصابة أهداف متحركة. وكانت مدافع الهاوتزر من الناحية التقليدية، تطلق النار على تشكيلات العدو، والخنادق، والاستحكامات والمستودعات، والعربات المدرعة الواقفة. ولكن الجيش المهاجم، سواء أكان الجيش السوفيتي أو أحد الجيوش المتعاملة معه في العالم الثالث، لا يمكن التعويل على أنه سيبقى ثابتاً، ينتظرنا أن ندكه بنيران سد مدفعي. كنا بحاجة إلى التفكير في حرب حركية.

وبالعمل مع المهندسين، صممت وبنيت سكة حديد تتلوى كالثعبان خلال شجيرات الشيح والعرعر في الميدان الشمالي لفورت هود، وتمشي على سكة الحديد قاطرة نسيطر عليها باللاسلكي وتقوم بسحب قطار من الأهداف الزاحفة تمثل دبابات، وناقلات جند مدرعة. وتدرب في هذا الميدان رجال مدفعية من كل أنحاء الفيلق الثالث: الراصدون يطلبون مهام رمي، والمدافع تشتبك مع الأهداف الزاحفة باستخدام الطلقات الدخانية. ومن الطبيعي، أن النواحي الفنية للميدان كانت مثيرة للاهتمام، ولكن إجبار رجال المدفعية على التفكير "خارج الصندوق" كان مهماً حقاً.

وبعد ذلك، شرعنا في تحسين تدريب الرمي المدفعي للدبابات لجنودنا في المناورة. فلسنوات، تدرب سدنة الدروع على ميادين رماية طويلة، ضيقة، بنيت لتتلاءم مع ميدان الرؤية المحدود لأنظمة التسديد المركبة على دباباتنا. وكانت الأهداف المتحركة والثابتة توضع في مواضع يمكن التنبؤ بها. لقد كان من السهل على رماة مدفعية الدبابات أن "يعلّبوا" ميادين رمي فورت هود، وبذلك كانوا يسجلون باستمرار علامات جيدة جداً في هذا التدريب وهو أقل من الواقعي.

وبعد أن وسّعنا ميادين الرماية في بلاك ويل وكريتنبرغر ونصبنا المزيد من الأهداف المتحركة والأهداف المفاجئة غير المتوقعة، صار سدنة الدبابة ملزمين أن يوجهوا أبراج دباباتهم للتسديد بالاتجاه باستمرار "بحثاً" عن أهداف شبح (سلويت) تظهر عشوائياً على كلا الجناحين، وليس إلى الأمام فقط. في البداية انخفض معدل علامات الرماية في وجه هذه التحديات الجديدة.

في صباح أحد الأيام جاءني قائد كتيبة دبابات كان أداؤها ضعيفاً في ميدان الرماية الجديد في ميدان بلاك ويل، ليعبر عن اهتماماته، وقال: "توم، هذا الميدان قاس تماماً. وربما يكون قاسياً جداً أكثر مما يلزم."

وقلت له وأنا أشاهد دباباته تصلصل عائدة إلى خطوط البداية في غبار تكساس: "حسناً، يا ديف. إن آخر مرة دقّقتُ فيها، وجدت أن الحرب كانت قاسية تماماً."

وبعد مدة لم تطل كان سدنة دباباتنا وسدنة دبابة برادلي قد صاروا خبراء في أكثر ميادين الرماية الجديدة تحدياً. وكنت فخوراً وأنا أراقب الجنود الأمريكيين، وهم يرتفعون مرة ثانية، إلى مستوى جديد. وكان التعويض المكافئ لهذه الأساليب التدريبية لرماية المدفعية سيظهر بعد سنوات قليلة لاحقة في صحاري الكويت والعراق.

كنت أغادر البيت متجهاً إلى المكتب في صباح يوم أربعاء في شهر آب/أغسطس 1986 عندما رن الهاتف.

كان صوت أمي متوتراً: "تومي ري: أبوك سقط وهو في مستشفى ميدلاند التذكاري. وهم يعتقدون أنه أصيب بسكتة دماغية."

سقت سيارتي مسرعاً جداً على الطرق العامة لولاية تكساس، ومعي كاثي وجاكي، ووصلت ميدلاند في وقت متأخر من أصيل ذلك اليوم. كان والداي قد عادا إلى هناك في السبعينيات من 1970، وكان أبي قد قبل عملاً مع شركة البيع بي وبي وهي تصلح وتبيع الأجهزة الآلية لعزف الأسطوانات بقطع النقد، في كل أنحاء غرب تكساس. كان هذا نوع العمل الذي يحسنه بشكل جيد. وفي الحقيقة كان أبي قد اشترى جهاز عزف قديم من المركز العالي للشباب في ميدلاند ورممه وقدمه لنا هدية عيد الميلاد. في عمر الثانية والسبعين وعلى دواء ضغط الدم، كان ما يزال يعمل ستة أيام في الأسبوع كعادته.

وكل هذا لم يزدني إلا إحساساً بالصدمة فقط عندما رأيته مستلقياً في غيبوبة في وحدة العناية المركزة. كان أبي دائماً صاحب حضور من القوة الهادئة. والآن يبدو عاجزاً لا حول له.

في اليوم التالي كان مستيقظاً ومتماسكاً ولكنه كان يغيب عن الوعي ويعود. وشد على يدي. وقال بصوت ضعيف: "عندما تعود أنت وكاثي إلى البيت سوف نذهب لصيد السمّان. وسوف نحضر معنا كلباً آخر، يا تومي ري..."

"سيكون هذا عظيماً يا أبي."

وتحدث بفرح عن عربة البيت المتنقل التي تلقاها هو وأمي، وهي هبة أعطيناها لهما في ذكرى زواجهما الخمسين. ثم نام ثانية.

صحا بوضوح مرة أخرى، ونظر إلي بانتباه "أنا فخور بك. لقد تقدمت كثيراً منذ ذلك اليوم في أوستن عندما وضعناك في حافلة الركاب الغريهاوند تلك".

وفكرت، لقد عملت بجد فعلاً لأمد لهم يد العون. وعندما غادرناه في النهاية، أخبرنا الأطباء أنه كان يرقد مستريحاً، في ذلك المساء ذهبت أنا وكاثي وجاكي إلى

فيلم سينما لتخفيف التوتر. ولكن الصوارف القادمة كانت ما تزال تلعب عندما جاءني النداء.

كانت أمي تجهش بالبكاء على الهاتف: "أوه، يا تومي ري، أبوك قضى نحبه الآن."

وعندما كنا كاثي وأنا نركع في كنيسة المستشفى، تبسمتُ، وتذكرتُ كل الأوقات التي اتصلت به طلباً لنصيحته. "أبي، الأولدز قد سخنت قليلاً." غير سير المروحة وضع منظم حرارة جديداً يا بني. "المقعد في حمام الضيوف يستمر في التنقيط." خذ قلم رصاص. وهذا ما ستحتاج إليه لتصليحه.

وفي مرة اتصلت به من ضواحي فرجينيا الشمالية عندما توقف فجأة جهاز طحن القمامة والتخلص منها. "أظن أن علي أن أجيء بجهاز جديد، يا أبي".

فقال بطريقته الصبورة: "خذ ضوءاً كشافاً، يا تومي ري، واركع على ركبتيك وانظر إلى قعر الجهاز. فإذا كان هناك زر أحمر خارجاً، اضغطه إلى الداخل. هذا هو زر إعادة التشغيل."

طبعاً كان على حق. ثانية.

وطوال سنوات بعد جنازة أبي في ذلك اليوم الصيفي الحار في ميدلاند أجد نفسي وقد مددت يدي لتصل إلى الهاتف: لتصل إلى حكمته، ومشورته. ما زلت أتمنى لو كان هنا ليعطيها.

في شهر أيار/مايو 1987، ترفعت إلى رتبة عقيد، وبعد شهرين صرت قائد مدفعية فرقة الخيالة الأولى. وهذه الوحدة من حجم اللواء ضمت مدافع عيار 155 ملم ومدافع هاوتزر ذاتية الدفع عيار 8 إنشات، وبطارية من أنظمة إطلاق صواريخ متعددة. وشدَّدت على ضباطي وعلى قدامى الرقباء أن المدفعية جزء لا يتجزأ من فرقة الخيالة الأولى، وهي في كل جزء منها مميتة مثل الدروع ومثل كتائب المشاة الآلية التي نساندها. وكانت الفرقة تتطور بسرعة، وتناقش مناقشة كاملة العقيدة

القتالية التجديدية المستندة إلى سرعة البرق وقوة النيران الدقيقة للدبابة الجديدة ام-1 أبرامز وعربة المشاة المقاتلة ام-2 برادلي. ويجب على المدفعية أن تجاري هذه التغيرات ولا تتخلف عنها.

في يوم الاثنين، 22 شباط/فبراير 1988، كنت أعمل على طاولتي في تصورات مناورة تعبوية جديدة، كنت أستمع إلى موسيقى كلاسيكية من الراديو وأنا أكافح في سبيل تحويل النظرية إلى إجراءات تدريب عملية. كانت الموسيقى سوناتا على الكمان من باخ وقد بدأت لتوها عندما قطع المذيع الموسيقى بنشرة موجزة للأخبار: طائرة عمودية من الجيش من نوع سي اتش -47 قد تحطمت قرب شيكو في شمال تكساس، وقتلت عدداً غير معروف من الجنود.

وضعت قلمي. لا يهم كم عدد السنوات التي لبست فيها البزة، لقد كنت دائماً أصدم بالحزن على الشباب الأمريكيين الذين يقتلون في خدمة بلادهم... سواء أكان ذلك في ميدان المعركة أم في التدريب.

ولكن كان علي الكثير من العمل الذي يجب أن أكمله في هذا الصباح، على طاولتي وفي الخارج في ميادين الرماية. وكنت ثانية غارقاً في تصورات المناورة عندما دخل الضابط التنفيذي عندي.

وقال: "لا بأس، أيها العقيد لقد أخرجناهم جميعاً بشكل حسن."

أنزلت قلمي: "أخرجتم من؟"

"ضباط بطارية الصواريخ الذين بقوا على متن شينوك المتوجهة لفورت سيل."

تخدرت. كم من الطائرات العمودية في الجيش من نوع سي اتش-47 شينوك كان يمكن أن تكون هناك في الجو قرب شيكو، وهو مسار الطيران المباشر بين فورت هود وفورت سيل؟ تلك كانت طائراتنا العمودية سي اتش-47، وتحمل ضباطنا، ضباط بطارية أنظمة إطلاق الصواريخ المتعددة ليشاركوا في تمرين تدريبي مع وحدة مدفعية أخرى من الفيلق.

تجمدت في مكاني. لقد أمضيت عمراً وأنا أخطط لكل معركة طارئة كنت أستطيع أن أتخيلها، ومع ذلك لم أتوقع هذه الكارثة البسيطة في وقت السلم. هل كان هناك ناجون؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أي حد كانوا مصابين؟ وماذا لو كانوا كلهم قد ماتوا؟ من الذين يجب علي أن أتصل بهم أولاً، القسيس؟ الأطباء النفسيون في مستشفى الموقع؟ أو هل يجب أن أتصل مع كاثي أولاً؟ لقد كانت هي شريكتي، وهي صلتي مع العديد من زوجات الجنود وعائلاتهم.

وببطء، ذاب جليد الشلل الذي اعتراني.

وجهت الضابط التنفيذي للاتصال بلواء الطيران ليؤكد أخبار النشرة عن الحادث. وبعد أن اتصل أعطت قناة تلفازية محلية تقريراً أكثر شمولاً. وعلى ما يبدو عانت الطائرة العمودية حريقاً في أثناء الطيران، وخرجت عن السيطرة، وانفجرت عندما اصطدمت بالأرض. ولم أشعر بمثل هذه الصدمة عن الضحايا منذ ذلك اليوم المزعج من آذار/مارس في 1968 عندما فجر لغم الفيتكونغ مجنزرة سرية تشارلي إلى قطع. كان من الصعب التفكير. لقد كنت مسؤولاً عن كل شيء فعلته وحدتي، أو فشلت في أن تفعله. لقد كنت مسؤولاً عن جنودي وعن عائلاتهم.

وطوال الساعات الطويلة التالية، قمت أنا وكاثي والقسيس بزيارة زوجات خمسة من الضباط الذين ماتوا. سبق أن أديت عدداً من الأعمال الصعبة وغير المحببة في مساري الوظيفي في الجيش، ولكن محاولة تقديم التعزية إلى أرملة شابة ترتجف وقد هدها الحزن وهي تحمل طفلاً لم يمش بعد، على ركبتيها كان هو أقسى شيء كان علي أن أفعله مطلقاً.

في وقت متأخر من تلك الليلة، استعرضت قائمة أسماء الذين شملتهم المصيبة، والتي كانت الأركان قد أعدتها. وكان الأطباء يستكملون استرجاع البقايا. وكان الأطباء النفسيون على اتصال مع الناجين. وقمت بعمل اتصالاتي الهاتفية إلى والدي الضباط الموتى. والآن يجب أن تستمر الحياة المألوفة الثابتة لإجراءات الجيش.

ومع ذلك، فما زلت غير قادر على تجاوز الفكرة التي تلح بأنني قد فشلت بصفتي قائداً. أنا مدين لجنودي ولعائلاتهم بأكثر مما قد أعطيتهم. لو أنني بشكل ما كنت قد توقعت...

لم يكن أمراً عادياً أن نتوقع الكارثة، كان ذلك أمراً مسلماً به. ولكن القيادة العسكرية لم تكن مهنة عادية. لقد كان واجبي أن أتبصر وأتنبأ. لقد عشنا في خطر غير عادي كل يوم، حتى في زمن السلم.

كل يوم...

وضعت كدسة من البطاقات الفارغة قياس ثلاثة في خمسة على تقويم طاولتي. ثم غليت دلة من القهوة.

على البطاقة الأولى، طبعت " 23 شباط/فبراير 88 - أكبر التحديات التي قد أواجهها اليوم." ثم رشفت رشفة من القهوة، وأدرجت خمساً من أهم المشكلات التي يمكن أن تنشأ في الأربع والعشرين ساعة القادمة، عندما تقوم قوات يصل عددها إلى ألفين تقريباً من الخيالة بممارسة مهنتها الخطرة. عندما انتهيت قلبت البطاقة وكتبت "الفرص التي قد تظهر اليوم."

وكل صباح منذ يوم الخميس ذاك في شباط/ فبراير 1988، دونت "التحديات والفرص" التي قد تحدث في ذلك اليوم. وتجمعت أكثر من خمسة آلاف بطاقة فيما بعد، وما زلت أعمل ذلك. البطاقة ذاتها غير مهمة، إعداد نفسي لكل يوم هو المهم بالتأكيد. ومن خلال العمليات المعقدة في أفغانستان والعراق، ساعدتني العملية على أن أتوقع أي عدد من المشكلات... والحلول.

تركت قيادة مدفعية الفرقة في مطالع شهر حزيران/يونيو 1989. وتخرجت جاكي من مدرسة كيلّين الثانوية في اليوم نفسه، وعددت بركات وجودي في فورت هود في السنوات الأربع الماضية. فجاكي خططت للدراسة في كلية درووري في سبرنغ فيلد، في ميسوري، حيث كانت قد تلقت منحة دراسية للسباحة، وأنا تم اختياري لأصير رئيس أركان فرقة الخيالة الأولى.

بعد بضعة شهور، تلقيت الأنباء بأن اسمي كان على قائمة الترفيع لرتبة عميد. وبصفتي رئيس أركان، كنت غارقاً حتى مرفقيّ في أوراق العمل المكتبي، أكمل تقريراً بعد العمليات عن ألعاب حرب الصحراء في مركز التدريب الوطني الممتد في فورت إروين في كاليفورنيا. وعندما التقطت الهاتف لأكلم كاثي عن الأخبار الجيدة، تصورت الرقيب الأول سكاغليوتي في تلك الثكنة في فورت ديفينز.لم أصل إلى رئيس رقباء، ولكن ربما كان سكاغ سيرضى بنوع الضابط الذي تبين أنني وصلت إلى رتبته.

في الصيف التالي، تلقيت أوامر لأقدم نفسي للعمل بصفة مساعد قائد مدرسة المدفعية في فورت سيل. ذلك كان المكان الذي كنت أستطيع فيه أن أطبق نظرياتي عن السرعة وقوة النيران.

ولكن تلك الأوامر سوف تتغير سريعاً.

في يوم الخميس 2 آب/ أغسطس 1990 درج آلاف الجند ومئات العربات المدرعة إلى داخل الكويت واحُتلت الدولة الخليجية العربية الصغيرة بعد معركة قصيرة من طرف واحد.

وكلمني قائد الفرقة الجديد العميد جون تيليلي، في البيت في تلك الليلة. "توم، من الأفضل أن ننفض الغبار عن خططنا للانتشار في ما وراء البحار."

"تسلمت ذلك، سيدي"

وشجب مجلس الأمن في الأمم المتحدة عمل العراق، وطلب من صدام حسين أن يسحب قوة احتلاله من الكويت فوراً. ولكن صدام أعلن رسمياً ضم الكويت بوصفها المحافظة التاسعة عشرة للعراق. وتبع ذلك مزيد من قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة، ولكن العراق وقف ثابتاً على موقفه.

تم إنذارنا بالانتشار إلى موقع غير محدد في "جنوب غرب آسيا." وكان كل واحد قد عرف أن المكان هو المملكة العربية السعودية، لأن الأجنحة القتالية للقوات

الجوية والجماعة المتقدمة من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً كانوا من قبل في طريقهم إلى المكان. واطلعنا على مدار الساعة على تفاصيل لا نهاية لها لإرسال فرقة ثقيلة من الجيش الأمريكي إلى الجانب الآخر من العالم. وعندما انتشرت الخيالة الأولى، أدركت، أنها سوف تأخذ الميدان بسلالة جديدة من الجنود والأسلحة الثورية.

وكان رئيس أركان الجيش الجنرال كارل فوونو قد زار الفرقة بعد أيام قليلة لاحقة، وعقد هو وجون تيليللي مناقشة خلف أبواب مغلقة. وعندما خرجا كنت قد حصلت على عمل جديد.

قال لي جون تيليللي: "توم، إن الجيش سوف يرقيك ويخلع عليك رتبة عميد."

وفي وجه المعركة القادمة في العراق تسارعت ترقيتي إلى رتبة ضابط جنرال: وعلى الرغم من أن التاريخ الرسمي لحمل الرتبة سيكون في شهر تموز/يوليو، 1991 فقد علقت نجمة فوراً.

ثم انحلت مسألة أخرى. تيليللي طلب، والجنرال فوونو وافق على أن أصير قائد الفرقة المساعد لشؤون العمليات والمناورة، وينفذ الأمر فوراً. سأقوم بقيادة الجماعة المتقدمة من الفرقة إلى الصحراء.

بعد ثلاثة وعشرين عاماً من قيام الملازم تومي فرانكس بالصعود على متن الطائرة النفاثة المستأجرة من الخطوط الجوية كونتيننتال في الطريق إلى فيتنام، ها أنا ذا سأكون عميداً جنرالاً، وسأذهب إلى الحرب ثانية.

✤ ✤

الفصل الخامس

رتبة ترفع علمها(*)

منطقة التجمع حصان. المملكة العربية السعودية.

24 كانون الأول/ ديسمبر 1990

لم أتوقع عيد ميلاد سعيداً.

كل واحد في مركز القيادة التعبوي للفرقة كان أشعث رث اللباس. ففي الأشهر الأربعة السابقة، عمل 17.000 رجل وامرأة من فرقة الخيالة الأولى أياماً وليالي طويلة في إكمال انتشارنا لعملية درع الصحراء.

عندما قدت الجماعة المتقدمة إلى المملكة العربية السعودية، كنت قد تقابلت مع قائد الفيلق 18 المحمول جواً، الفريق غاري لوك، في وقت متأخر من ليلة حارة، رطبة من شهر آب/أغسطس في مدينة الظهران إحدى مدن الخليج العربي. سوف نؤسس منطقة تجمع في المكان الذي سوف تمُرحل(**) فيه الفرقة آلاف الجند ومعداتهم في الكثبان الرملية المنخفضة على بعد 160 كيلو متراً إلى الغرب من ميناء الدمام. فرقة الخيالة الأمريكية كانت ستأتي إلى المدينة، وأسمينا منطقة التجمع "الحصان" تكريماً لتاريخ الفرقة.

(*) الرتبة العسكرية البحرية التي تسمح لحاملها أن يرفع علماً يمثل المنطقة التي يمارس فيها قيادته، وهي تعني عموماً رتبة جنرال (عميد، ولواء، وفريق).

(**) التمرحل هو: التجميع، والتنظيم، والاحتفاظ بالواصلين من الأفراد، والتجهيزات، وإدامة المواد استعداداً للحركة قدماً. والتنظيم والإعداد لحركة الأفراد والتجهيزات والمواد في المناطق المحددة للبناء التدريجي لقوات قادرة على الوفاء بمتطلبات القائد العملياتي.

وإلى الشمال منا، فرقة المشاة 24 (آلية) والفرقة 101 المحمولة جواً (اقتحام جوي) قد عززت المشاة الخفيفة للفرقة 82 المحمولة جواً. وفي أثناء الأسابيع الأولى الموحشة من شهر آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر، تَوضّعَ خيالة الجو هؤلاء كأنهم سلك عاثوري، "مصيدة السرعة" لصدام حسين في الحالة التي يقرر فيها أن يرسل قواته جنوباً إلى المملكة العربية السعودية.

وفي الوقت الذي كنا نعمل في تلك الحرارة الخانقة، على إقامة مواقع الألوية والكتائب التي تمتد عبر اتساع من الصحراء التي لا تضاريس فيها، كان الدبلوماسيون في الأمم المتحدة يحاولون إقناع العراقيين بأن يسحبوا قواتهم من الكويت ليمنعوا قيام الحرب. وأصدر مجلس الأمن عشرة قرارات تدين العدوان العراقي، وتعهد الرئيس جورج اتش. دبليو. بوش تعهداً جاداً بأن العدوان "لن يصمد." ولكن صدام عاد فصدم المجتمع الدولي، وأصر بعناد أن الكويت صارت الآن محافظته الجديدة. وشكلت الولايات المتحدة وحلفاؤها في حلف الناتو تحالفاً تاريخياً كان الآن يشمل قوات من الدول العربية المجاورة للعراق.

من منظور جندي في الصحراء، بدت لي الحرب حتمية لابد منها. وكان الإعداد للحرب هو أقسى عمل كنت قد عملته منذ فيتنام.

ومع وجود الجنرال جون تيليلي في استقبال الجند في ميناء الدمام ومع وجودي في منطقة التجمع، تولينا مهمة إعداد الجنود للقتال. كانت تلك المهمة معقدة لأننا كنا سنحدّث كل الرصيد المخزون لدى الفرقة الذي يزيد على 300 دبابة ام1 أبرامز إلى الدبابة الجديدة ام1ايه1. فهذه الدبابة تمتلك مدفعاً من عيار 120 ملم أطول مدى، ودرعاً معززاً، ونظام حماية نووياً وحيوياً وكيماوياً. وقد رحبنا بالحماية النووية الحيوية الكيماوية لأن العراقيين كانوا قد استخدموا غاز الأعصاب في حربهم مع إيران وضد المدنيين الأكراد في شمال العراق، وكانوا موضع شك في أنهم يمتلكون عوامل حيوية. وتنبأت الاستخبارات في ذلك الوقت أن العراق لن يتردد في استخدام أسلحة الدمار الشامل هذه ضد قوات التحالف.

وتم إنجاز عملية استبدال دروع الفرقة بإدخالها إلى الميدان بشكل "حزمة كاملة"، فبدا الأمر وكأنه تمرين إمداد وتموين مباشر غير معقد. وعندما راقبت القوافل التي امتدت بلا نهاية من نصف المقطورات من نوع لو بوي والدبابات الجديدة ام1 ايه1 تدرج داخلة من الميناء، أدركت القوة العارمة لقدرة أمريكا الصناعية العسكرية. ولكن تبديل نموذج من الدبابات من أجل إحلال نموذج آخر في هذه البراري الحارقة، ثم القيام بتدريب السدنة على استخدامها في الوقت نفسه الذي يتم فيه إبداع خطة المعركة، كان أي شيء إلا أن يكون أمراً بسيطاً.

وفيما كان السدنة يجهزون دباباتهم الجديدة، قام العميد جو روبلز، مساعد قائد الفرقة لشؤون المساندة، بتوجيه المهندسين إلى جرف وعزق ميدان رماية من الكثبان الرملية ومسطحات الحصباء لتأهيل الدروع، في شرق المملكة العربية السعودية. وأصر جون تيليللي على أن يكون "ميدان الرماية بيغاسوس"(*) خط رماية حركياً وليس ثابتاً لا يتحدى الرماة. وسيقوم سدنة كل دبابة أبرامز وبرادلي بالتأهيل مع مدافعهم من وضع الوقوف والحركة معاً، في خلال تشرين الثاني/نوفمبر ومطالع كانون الأول/ ديسمبر. وكانت مستويات العلامات مثار الإعجاب. هؤلاء الشبان الأمريكيون كانوا يتلاقون في التركيز على الذهاب إلى الحرب.

وبانتظار أن تسير المفاوضات الدبلوماسية في مجراها، كنا نتدرب ونكمل إتقان التعبئة، طوال اثنتي عشرة ساعة إلى أربع عشرة ساعة في كل يوم، طوال سبعة أيام في الأسبوع. ولكن الدبلوماسية لم تحقق إلا القليل من التقدم. وفي مقر قيادته في الرياض كان الجنرال نورمان شوارتسكوف، القائد العام الأمريكي في القيادة المركزية، يطور خطة لتحرير الكويت. وقد وافقت وزارة الدفاع ووافق البيت الأبيض على طلبه لمضاعفة حجم قوات التحالف إلى 550.000 من الجنود

(*) بيغاسوس في الأساطير اليونانية اسم الحصان الذي ضرب بحافره فأنبع نافورة هيبوكرين في جبل هيليكون.

الأمريكيين، والبريطانيين، والفرنسيين، والعرب، وهو ما يصل تقريباً إلى أربع عشرة فرقة من القوة المقاتلة المتحالفة.

كنا جميعاً مشغولين للغاية إلى درجة شعرنا فيها أن عيد الميلاد فاجأنا. وبالتأكيد فإن الجند في مركز قيادة الفرقة لم يكونوا يشعرون بفرحة العيد والاحتفال به. وكانت الخيام، المستخدمة في الأغراض العامة، المتوسطة الحجم وامتداداتها المشابهة للخيام الموضوعة فوق مجنزرات قيادتنا، كانت مخبأة تحت شبكات تمويه ملونة، تعطيها مظهر أكوام النمل التي كانت في المزرعة في ونيوود. وعندما هبت النسمات من ناحية براميل المراحيض المحترقة، انتشرت رائحة جعلت المكان مثل بنه بهوك. وليس مهماً كم من أكاليل الزهور الحمراء والخضراء كان معلقاً في داخل الخيام، لأن هذا الركن من المملكة العربية السعودية لم يبق جذاباً لمدة طويلة بعد ذلك.

حاول الجند أن يكونوا مرحين، ولكن ذلك لم يكن سهلاً. فالبيئة المحيطة العارية وحدها فقط أضافت حدة إلى المزاج الحاد. لقد أدرك كل واحد منا أننا سنكون في القتال قريباً. ولم يكن أحد يتوقع أن يكون القتال سهلاً. لقد نشر الجيش العراقي ثمانياً وعشرين فرقة للدفاع عن الكويت، وهذا العدد يتفوق على قوات الحلفاء بمعدل اثنين إلى واحد. وفرقهم الست من الحرس الجمهوري النخبة مجهزة بدبابات تي -72 من صناعة الاتحاد السوفيتي، وهي فرق هائلة، ولديها حافز جيد للقتال. وهناك أيضاً احتمال مواجهة أسلحة الدمار الشامل.

ويضاف إلى قلقنا العام الحنين إلى الوطن تلك العاطفة القديمة. ففي أثناء الحرب الباردة، كان معظم الجنود المحترفين ينجحون في قضاء عيد الميلاد بين أحبابهم وذويهم. وبالنسبة إلى الكثيرين من الجند الشباب، فإن هذا العيد سيكون أول عطلة لهم لم يجلسوا فيها على موائد آبائهم لتناول العشاء من الديك الرومي. والبريد كان بطيئاً، ولم تكن هناك فرص كثير للتحدث بالهاتف مع البيت في الوطن. ولكن العديد منا مع ذلك تسلموا رزماً تعبر عن العناية والاهتمام من

عـائـلاتنا، وكانوا قد ادخروا سلفاً الكعك الخفيف والحلويات من أجل البذخ في عيد الميلاد.

ولأجعل المعسكر أكثر مرحاً، أرسلت عدداً من الكشافة الواسعي الحيلة للتفتيش عن شجرة عيد ميلاد. وفي مساء عيد الميلاد وضعنا صنوبرة صحراوية نحيلة قطعت من أشجار حاجز الريح من أرض أحد الشيوخ المحليين، في خيمة المطعم الكبيرة. ومع أغنية "أراحكم الله أيها السادة المرحون" تنبعث من مُجسِّم للصوت (ستيريو) قابل للحمل، فتحنا الحلويات وزينا الشجرة بالنجوم التي قطعناها من صحون الصفيح، أو خيطان من الفشار، وقطع من السلك الملون المعتاد. وتناولت مع الموجودين علبتين من البيرة الخالية من الكحول من نوع كلوزثالر.

وتذكرت، وأنا أرتشف ذلك البديل السيئ للشيء الحقيقي، الأيام التي كنت أدعى فيها إلى حفلات عيد الميلاد في نوادي المتطوعين في الجيش. وكما هو معتاد دائماً، كنت أحب أن أكون مع الجند، أشاركهم صور العائلات، وأستمتع وأسترخي. أما الآن، فلأول مرة لي في البزة، أحسست بمسافة بيني وبين الجند.

عندئذ، أدركت: أنا الآن جنرال.

عندما جلست إلى طاولاتهم، كانت أعين الجنود من حولي تذهب تلقائياً إلى النجوم القماشية الموجودة على بزتي العسكرية الصحراوية التي تعلوها بقع بلون الشوكولاتة. كان الجند يعتقدون أن الجنرالات مختلفون عن الناس، من طبقة منفصلة من المخلوقات. وكان الجنود يتوقعون أنني، بوصفي جنرالاً، أمتلك إجابات لجميع الأسئلة المهمة في حياتهم: ماذا كانت الخطة الإستراتيجية لصدام حسين؟ وماذا كانت الأفكار الخاصة العميقة للجنرال شوارتسكوف؟ وما هي العوامل الخفية التي قررت التوازن بين الطعام الساخن والوجبات الجاهزة للأكل؟ وما الذي يضبط ذبذبة البريد؟ وما هو فوق كل هذا، نوع الشحم الذي كان هو الأفضل لمدَرَّجات المجنزرة على الدبابات الجديدة ام 1إيه1؟.

سيكون شأني عظيماً لو أنني كنت أستطيع الإجابة عن تلك الأسئلة. وكانت الحقيقة هي أنني لم أكن أستطيع ذلك. لقد اكتشفت، أن كوني جنرالاً، كان يعني أن أجمع أكثر ما يمكن من المعلومات، وهي دائماً قليلة الورود، ثم أتخذ القرارات. ثم قبولها والتلاؤم معها. وكان هذا يعني استخدام الرأي. وكان يعني أيضاً أنني غير قادر على قضاء وقت مع الجند بالقدر الذي كنت أريده، مثلما كنت أفعل في الماضي. كان لدي الكثير لأتعلمه.

وفي الحال بعد أن وصل الجنرال تيليللي إلى الظهران بعد أن كان مشغولاً في تفريغ معداتنا من السفن، ظهر مراسلان صحفيان في منطقة التجمع حصان، غير مصحوبين بمرافقين من العلاقات العامة. ومن الطبيعي أنهم طلبوا أن يروا "الجنرال." كانا يعرفان كيف يتزلفان بالإطراء، وكانت من السهل أن أقع في حبائل التزلف. ولما حان الوقت الذي قفزا فيه إلى سيارتهما التويوتا المستأجرة من نوع لاندكروزر، كنت قد شاركتهم في حكمتي حول الإستراتيجية المثلى لكسب هذه الحرب وعن أبرز النواحي في بصيرتي التعبوية.

وفي أثناء تقريري في كل ليلة عن الموقف إلى الجنرال تيليللي، لاحظت باعتزاز أنني"قمت بمقابلة جيدة مع المراسلين."

وللحظة، بقي الهاتف المأمون صامتاً. ثم سأل تيليللي "عم تتحدث أنت؟" ولم يكن هو نفسه الصديق المعتاد.

وشرحت له كم كان المراسلان مهتمين فيما كنت أقوله. وسادت لحظة صمت مؤلمة أخرى على قناة الاتصال.

ثم قال بلهجة رسمية، لم تكن أبداً علامة جيدة: "جنرال فرانكس، لا تفعل أشياء مثل ذلك دون التحدث إليّ أولاً." ثم تنحنح وصفى حنجرته. لم ينته بعد من الفرشاة السلكية. "لديك مسؤوليات معينة. ولكن القيادة العامة لهذه الفرقة ليست واحدة منها. في المستقبل، اترك المراسلين لي."

وقلت ممتثلاً: "فهم، سيدي."

وعندما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع الجند في خيمة المطعم في مساء عيد الميلاد، تحسن المزاج قليلاً عندما ربط رقيب من مفرزة الإشارة ميكروفوناً وسماعات أكبر مع مجسم صوت قابل للحمل. وهذا ما عزز قناعتي بأن الرقباء كانوا هم في الحقيقة الناس الذين يجعلون الجيش يعمل. والآن كنا نستطيع أن نتناوب أدوارنا في قيادة تأديات أساسية من أغاني عيد الميلاد "زينوا القاعات." وانحنيت لطلب الجمهور، وهاجمت سمع كل واحد ببيت شعر من أغنية وين نيوتن"(*) عيد ميلاد راعي البقر،" ظناً مني أن ألم الاستماع إلي وأنا أغني قد يقدم لحظة انصراف عن القلق بشأن غاز السارين العراقي.

ولكن عندما بدأتُ أتحرك بين طاولات الجنود، أظهر إعجابي بصورة التوأم الصغير للرقيب المعلم جونز، أو بصورة جم ابن رئيس الرقباء سميث وهو في زي الشبل الكشاف، فإن مزاج العزلة الموحشة الكامن في نفسي اعتراني ثانية. وقام عريف بفتح زر على ساعته من نوع سيكو ليدقق في الوقت في دنفر. وقال وهو يناولني صورة فتاة جميلة، ونحيلة مع أمها الممتلئة: "ليندا وأمها، ربما كانتا الآن تزينان الشجرة، يا سيدي."وللحظة لم يتكلم أحد على الطاولة. وتصورتُ جاكي وكاثي في بيت أمي في ميدلاند. فبعد عام ونصف في كلية دروري، حيث كانت طالبة جامعية واختيرت أفضل طالبة تمثل أمريكا، نقلت جاكي إلى جامعة ولاية أوكلاهوما. كانت فتاة طويلة شابة، ومثل أمها، كانت تعيش في بيت أُخُوَّة تراي- دلتا نفسه الذي عاشت فيه كاثي في أثناء وجودي في فيتنام. لقد حاولت أن أكون أباً جيداً، أقضي أكثر ما أستطيع من الوقت معها. ولكن كوني جندياً جيداً،لم يجعلني أكون أفضل أب، الأب الأكثر رعاية، والأكثر انغماساً، والأكثر حضوراً. وفي غضون ساعات قليلة ستبدأ جاكي وكاثي بفتح الهدايا تحت الشجرة. كم تمنيت لو كنت أستطيع أن أكون معهما.

(*) هو مغن أمريكي انطلق في ١٩٦٣م في بلده لاس فيغاس ثم اشتهر بنمط خاص به.

في خارج الخيمة كان المولد الكهربائي يشقشق بصوته المتفجر. والريح المحملة بالرمل تسربت داخل الخيمة تحت رفارفها. والتحقت مع مجموعة من الجنود على الطاولة التالية، وتحدثنا عن حظوظ فريق كرة القدم دالس كاوبويز في المباريات الأخيرة. وجاء نحوي عسكري شاب أسود فني درجة 4 اسمه جاكسون وجلس إلى جانبي، وهو ينصت باهتمام، ولكن من دون أن يتكلم. لقد رأيته في مركز القيادة، يسوق عربة من نوع همفي، وواقفاً في حراسة نطاق محيط المركز. كان جندياً يقظ المظهر، ولكنه على ما يبدو لا يبتسم قطعياً، ولا يبدو أن له أي أصدقاء مقربين. وكنت قد دققت في خلفية جاكسون، وشرح لي قائد سريته أنه كان من أسرة كبيرة فقيرة من صغار الفلاحين من مكان ما في كارولينا الشمالية والجنوبية، وقد تطوع في السابعة عشرة، وفي كل أوقاته التي أمضاها في الفرقة،لم يكن على ما يبدو يتلقى أي بريد مطلقا. وكان جاكسون يقوم بعمله على نحو جيد، ولكنه من وجهة نظري ونظر قائده بشكل مشابه بدا لنا جاداً جداً، وكان تقريباً جاداً أكثر مما يجب بالنسبة إلى عمره. والآن، ونحن نجلس معاً في مساء عيد الميلاد نتحدث عن كرة القدم، كان جاكسون يحدق في صورنا العائلية باهتمام، ولكنه لم يظهر لنا أي صورة تخصه.

في نهاية الأمر، انتقلت أنا إلى طاولة أخرى، وكان عليها رائد من نيران المساندة يغني بصوت عال قوي "رأيت أمي تقبل بابا نويل." وكان جاكسون خلفي تماماً، ومرة أخرى جلس على الكرسي الذي يليني. وفي الواقع ابتسم ابتسامة مكشرة عندما قص الرقيب الأقدم قصة تفصيلية عن أحد المطوعين، وهم الشرطة الدينية السعودية، والذي كاد يُدهس تقريباً في طريق خط النفط التابلاين وهو يحاول أن يوقف امرأة جندية أمريكية وهي تسوق شاحنة حمولة خمسة أطنان. فالنساء لا يسمح لهن بقيادة السيارة في المملكة العربية السعودية، أو حتى الظهور في المجتمع من دون رجل قريب لها. وخارج بيوتهن، يجب على النساء أن يغطين أنفسهن من الرأس إلى الكاحل برداء أسود كالدثار اسمه العباءة. ولذلك فإن وجود

آلاف النساء الجنديات الأمريكيات في البزة العسكرية الصحراوية، وكان الكثيرات منهن يسقن شاحنات ضخمة، ولا يرافقهن، كما هو واضح، رجل من أفراد عائلاتهن، كان وجوداً شكل مصدراً ثابتاً للانزعاج للشرطة الدينية المحلية.

والقصة حصلت فعلاً على ضحكة من جاكسون. وقال: "هذا عظيم، يا رقيب."

وغيرت الطاولات، وجاكسون يتحرك معي.

وفي نهاية الحفلة، اشتركنا في غناء: "الليل الصامت." وقد غنى الاختصاصي جاكسون كل بيت من الشعر بصوت قوي، وواضح وجميل.

وعندما انتهى الغناء، وضع جاكسون ذراعيه حولي وقال: "شكراً جزيلاً لك، يا سيدي. هذا أفضل عيد ميلاد في حياتي."

كنت في خارج الخيمة في ظلام ليل الصحراء قبل أن يستطيع الجنود أن يروا الدموع في عيني. لقد كنا نشعر بالأسى على أنفسنا، ونفتقد أسرنا ونشتاق إليهم بشكل شديد، على الرغم من شجرة الميلاد، والكعك أو ربما بسبب ذلك. وهناك كان جاكسون، يستمتع بأول عيد ميلاد لأسرة حقيقية ناله ربما حتى الآن. لقد نسيت الحقيقة البسيطة التي كنت قد تعلمتها في فيتنام: وهي أن للجنود أسرتين، الأولى هي التي ولدوا فيها، والثانية هي التي تضم كل الرجال والنساء الذين يخدمون معهم.

في غضون شهر، ربما سيكون بعض هؤلاء الشباب في عداد الموتى.

استحضرت في ذهني ذلك الجندي الشاب الذي كان اسمه غارسيا، وهو الذي سقط من خلال الصدوع في سرية الخيالة الأولى لبطارية الهاوتزر، وفكرت: هذا الشاب محظوظ لأنه يجد الجيش له، والجيش محظوظ لأنه يضمه.

بدأت الحملة الجوية ضد العراق في الساعة 0400 في 17 كانون الثاني/ يناير 1991 . وتحولت عملية درع الصحراء إلى عملية عاصفة الصحراء. وعلى مدار الساعة طوال أسابيع، قصفت الطائرات الأمريكية والبريطانية والفرنسية، والإيطالية والعربية الجيش العراقي، وأهداف القيادة والسيطرة في بغداد وقربها.

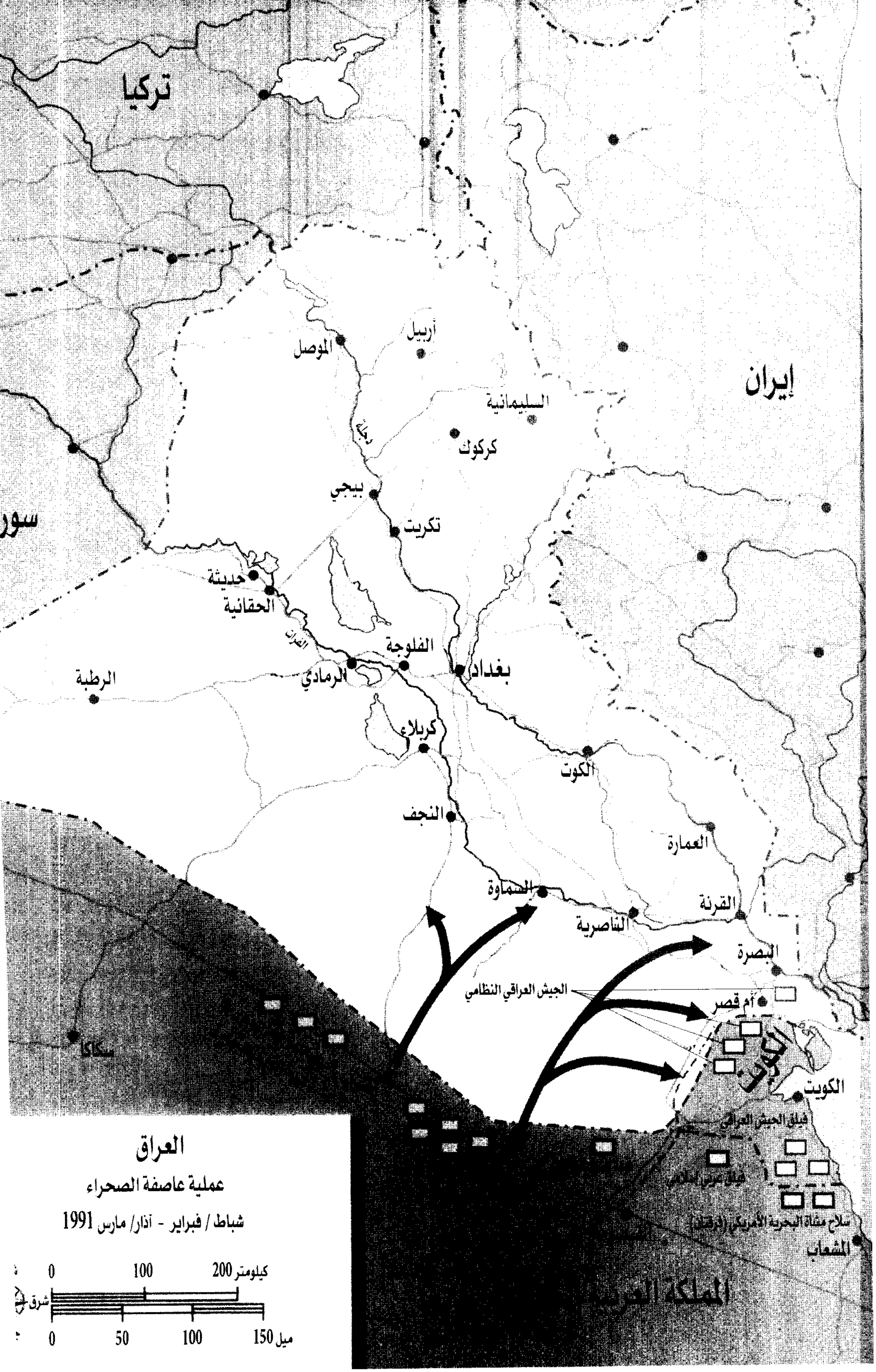
تركيا
إيران
الموصل
أربيل
السليمانية
كركوك
بيجي
تكريت
حديثة
الحقانية
الفلوجة
الرمادي
بغداد
الرطبة
كربلاء
الكوت
النجف
العمارة
السماوة
القرنة
الناصرية
البصرة
الجيش العراقي النظامي
أم قصر
سكاكا
الكويت
فيلق الجيش العراقي
سلاح مشاة البحرية الأمريكي (فرقتان)
المشعاب
العراق
عملية عاصفة الصحراء
شباط / فبراير - آذار/ مارس 1991
0 100 كيلومتر 200
شرق
0 50 100 ميل 150

عندما بدأ القصف، جاءت الفرقة تحت السيطرة العملياتية للجنرال فريدريك فرانكس (لا توجد علاقة) وفيلقه السابع. وفي مؤتمر عقد تحت قباب القرميد الزمردي لمدينة الملك خالد العسكرية، قدم الجنرال شوارتسكوف إيجازاً لأعلى قادة في التحالف عن الخطة النهائية لعاصفة الصحراء. وبدلاً من الاندفاع المفاجئ مباشرة إلى الدفاعات العراقية الصلبة على حدود الكويت، سوف تدير الفرق الثقيلة من الفيلق السابع مناورة "خطاف أيسر" جسورة نحو الغرب والشمال. بعدئذ ستقوم تلك الفرق بالدوران إلى اليمين وتضرب الجناح المكشوف من العدو. وأبعد من ذلك إلى الغرب ستقوم الوحدات الأخف والأسرع من الفيلق 18 المحمول جواً بالتقدم بوثبات نحو الشمال لتستولي على الطريق العام رقم 8 على نهر الفرات، وتغلق بذلك خط الانسحاب العراقي نحو بغداد. وستقوم قوة مهام برمائية بعملية إبرار مضللة في الكويت وهو ما سيجمد الفرق الشرقية على طول الساحل، وتقوم فرقتان من مشاة البحرية على الأرض تقريباً بالاندفاع عبر حقول ألغام العدو واستحكاماته وتندفع نحو مدينة الكويت.

المفاجأة والسرعة كانتا العنصرين المفتاحين للخطة.

ومثلهما كان الخداع. وكان الخداع مسؤولية فرقة الخيالة الأولى. وعندما قام قائد قوات الجيش، الفريق جون يوسوك، وقائد الفيلق السابع فريدريك فرانكس بتقديم إيجاز لكبار ضباط الفرقة، قيل لنا إن واجبنا كان هو إقناع العدو أن الهجوم الرئيسي للحلفاء سوف يأتي من طريق الغزو التاريخي للعراق، وهو وادي الباطن. وكان هذا الوادي واسعاً، وهو مجرى نهر جاف امتد شمالاً من الهضبة السعودية إلى دلتا نهري دجلة والفرات، وهو يشكل الحد الغربي للكويت. وكان الإبقاء على انتباه العدو مركزا على الوادي يصرف انتباهه عن الاندفاع الرئيسي للتحالف نحو الغرب.

كانت مهمتنا هي الاشتباك مع الفرق الستة من الجيش النظامي العراقي التي تدافع عن الوادي في الجنوب وتثبيت فرقتي توكلنا والمدينة من الحرس الجمهوري

في أبعد مواقع لهما في الشمال. وسيكون على الخداع الناجح أن يستغل العقيدة العراقية العسكرية التي تطورت في أثناء الحرب مع إيران، وبموجب هذه العقيدة قام قادة صدام بنشر فرق مشاة يضحون بها على خطوط الجبهة، لتكون لقمة سائغة للمدافع لإبطاء هجمات العدو، وهي مكونة من المسحوبين بالقرع العسكرية ومن الاحتياطيين، بينما يستبقون الحرس الجمهوري الأكثر انضباطاً، والأفضل تجهيزاً على مسافة أبعد إلى الخلف لتكون قوات هجوم معاكس. هذه هي بالضبط الكيفية التي كانت قوات العدو "مكدسة" بها عندما بدأت الحملة الجوية. وكان واجبنا أن نبقيها على ما هي عليه.

الجنرالان يوسوك وفرانكس أعطيانا مهمتنا. ونحن ابتدعنا التعبئة.

كنت قد درست الحرب الإيرانية العراقية، ولاحظت أن المدفعية المتكتلة طويلة المدى كانت ملمحاً مشتركاً على الجانبين كليهما من خطوط المعركة. وكان القادة العراقيون يتوقعون أن يكون الاقتحام الرئيسي من التحالف مسبوقاً بقصف مدفعي كثيف. وفي الحقيقة، فإن استخبارات القيادة المركزية رفعت تقارير تفيد أن نيران المدفعية الأمريكية سوف تكون أهم مؤشر للعراقيين عن الموقع والتوقيت الذي سيأتي منه اقتحام التحالف.

ونظراً إلى أن جدران الجرف الشديد الانحدار لوادي الباطن تقدم حماية طبيعية للجناح، فإن خيار سلوك الوادي طريقاً للغزو شمالاً سوف يبدو خياراً مقنعاً. ولكن العراقيين لم يكونوا أغبياء ولا أغراراً بلا خبرة، وفي الحقيقة، فإنهم كانوا يملكون من القادة الذين قادوا جنداً في المعركة أكثر ممن عندنا. وسيكون واجب فرقة الخيالة هو أن تقنع هؤلاء القادة الأعداء الذين قوتهم المعارك بأن يبقوا وحداتهم في مكانها، متخندقة ضد حملة جوية من التحالف لا ترحم في الوقت الذي ينتظرون فيه الهجوم الرئيسي للتحالف من الوادي، وهو الهجوم الذي لن يأتي أبداً.

في أواخر كانون الثاني/يناير تحركت الفرقة شمال طريق خط النفط

التابلاين واتخذت لها مواقع غربي الوادي، حيث تتلاقى الحدود بين المملكة العربية السعودية والعراق والكويت. وافترض تصورنا أن الاستطلاع الجوي العراقي، الذي كان نشيطاً على طول الحدود لعدة شهور، قد أصيب بالعمى عندما قامت مقاتلات التحالف بتدمير العشرات من طائرات العدو وأجبرت البقية على أن تهرول إلى ملاذ مشكوك فيه في إيران. ولكننا عزمنا على أن ندع العراقيين يعرفون أن هناك تشكيلاً أمريكياً كبيراً وقوياً تحت حافة الحدود تماماً.

وقد أخبرت العقيد جيم غاس، وهو قائد مدفعية فرقتنا، في صباح 7 شباط/فبراير: "أننا نريد أن نبقيهم يخمنون." ووقف هو ومرؤوسوه من قادة كتيبة المدفعية إلى جانبي أمام خريطة تعبوية واسعة في مركز قيادة الفرقة. وفتحت الصفحة على شمال الحدود تماماً. "سيكون هدفنا الأول هو أبراج الرصد هذه. من الأساسي لنا أن نعمي حراس الحدود وجند الاستطلاع في ما يخص قوتنا الحقيقية وتوزيعنا."

ووافق الضباط. كان هناك خط من أبراج الرصد العراقية بارتفاع أربعين قدماً وعلى مسافة كيلومترين شمال حافة الحدود، وهي تمشي في الاتجاهين معاً حتى الأفق مثل مواقع سياج إسمنتي ضخم. ومع هذه الأرض المستوية مثل سطح بحيرة، سمحت الأبراج للعراقيين أن يروا حتى داخل مناطق مؤخرتنا، حتى من دون ميزة طيران الاستطلاع. واكتشفنا أيضاً أن العراقيين يستخدمون الأبراج لتوجيه المهندسين العسكريين، خبراء هندسة التدميرات، إلى قطاعنا لزراعة الألغام. وكنت قد وصلت إلى حافة الحدود مع فريق استخبارات في أصيل اليوم السابق، وراقبت القوات العراقية من خلال المنظار. وفي كل يوم غير العراقيون نوبات العمل في الأبراج كل ثماني ساعات، ابتداءً من الفجر.

واليوم، كان لدينا مفاجأة لهم. وقد لخصت الخطة بينما كان ضباط المدفعية يدونون ملاحظات دقيقة.

ذلك الأصيل، وبالضبط عندما كانت زمر الرصد العراقية مستعدة لتبديل

نوبات الواجب في عدة أبراج، درجت عربة بلون الرمل البني هي عربة فريق رمي المساندة إلى حافة الحدود. ومثلما شاهدت من سيارتي من نوع همفي، قامت عربة فريق رمي المساندة، وهي تنويعة حديثة للمجنزرات القديمة ام-113، برفع الدليل الليزري ذي الشكل T القصير الخاص بها وأضاءت أقرب برج بحزمة ليزر غير مرئية. وفي الساعة 1358 بدقة، حقق فريق مساندة الرمي إحداثياتهم الصحيحة مستخدمين النظام العالمي لتحديد المواقع بجهاز استقبال الأقمار الصناعية (جي بي اس)، وبثوا بيانات الهدف المحوسبة إلى هاوتزر ام 109 ذاتي الدفع عيار 155 ملم على بعد عشرة كيلومترات إلى الجنوب. وأطلق المدفع مقذوف كوبرهيد (الرأس النحاسي) وهو مقذوف عالي التفجر ركب على حزمة أشعة الليزر بدقة إلى الهدف.

وانفجر البرج مثل ألعاب نارية، واختفى في غمامة من الدخان ومن الإسمنت المسلح المسحوق. ومع ذلك الوقت،كانت عربة فريق مساندة الرمي قد لَيّزرَت البرج التالي وفي غضون ثلاث دقائق ضرب مقذوف كوبرهيد آخر. وعندما حاول الناجون من البرج الأول أن يركضوا إلى شاحناتهم، انفجرت المنطقة بمئات من قنيبلات الذخائر التقليدية المحسنة المضاعفة الغرض التي انطلقت من هاوتزرات أخرى.

وكان هذا الهجوم هو أول مرة يطلق فيها رجال المدفعية الأمريكيون مقذوفات كوبرهيد وأحجاماً ضخمة من الذخائر التقليدية المحسنة في القتال، وكانت النتائج مؤثرة. وتم تدمير ثلاثة أبراج والعاملين فيها في تسع دقائق. وصار العدو المواجه لنا الآن أعمى، وسوف نبدأ المرحلة الرئيسية من مهمتنا في الخداع.

طوال الأسبوع التالي، قامت هاوتزرات مدفعية الفرقة بالتقدم خلسة إلى الحافة نهاراً وليلاً واشتبكت مع مواقع العدو واستحكاماته المضاءة بالليزر في عربات زمر مساندة الرمي والطائرات العمودية من نوع او اتش- 58كيووا. ومن شواطئ الخليج الفارسي في الشرق إلى الحدود مع الأردن في الغرب، كانت هذه المدافع هي الوحيدة في التحالف التي تطلق النار. وسيكون لدى العدو كل الأسباب ليفترض أن وادي الباطن سيكون محورنا الرئيسي للهجوم.

ومع ذلك، ولنكون متأكدين فقط، رفعنا ثمن الخداع. في ليلة 13 شباط/فبراير وهي ليلة لا قمر فيها، وقفت أنا مع فريدي فرانكس وجون تيليللي على الرمل البارد قرب وادي الباطن. وفجأة انفجرت الصحراء من حولنا مثل الفرن العالي. وطوال تسعين ثانية أطلق سبعة وعشرون نظاماً لقذف الصواريخ المتعددة من الفرقة ومن مدفعية الفيلق السابع رشقة غزيرة الرمي عبر حافة الحدود، على المواقع العراقية التي تركب جانبي الوادي. وعندما كانت الصواريخ تومض في الشمال، كانت ترتسم على صفحة السماء مئات من الغيوم الدخانية من دولاب ألعاب نارية شديدة جداً. وبعد ذلك لمع الأفق الشمالي، مثل برق الحرارة على الأراضي المنبسطة في تكساس الغربية. بعد لحظات تالية، قرقعت عصفات متموجة من الآلاف من قنيبلات الذخائر التقليدية المحسنة في الظلام. وتم إشباع الخنادق وحفر المدفعية المحاطة بأكياس الرمل بالنيران في الحال.

ولكن كان هناك المزيد من العمل المطلوب تأديته.

قرب منتصف الليل في 16شباط/فبراير وقفت إلى جانب مجنزرة قيادة مدفعية الفرقة للعقيد جيم غاس على الشفة الغربية للوادي. وتلاشى الظلام عندما أطلقت النيران خمس كتائب من هاوتزرات عيار 155ملم، ومجموعها تسعون مدفعاً في الجملة، وسبعة وعشرون قاذفاً من أنظمة قذف الصواريخ المتعددة أطلقت جميعها سداً لمدة ثلاث دقائق هز الأرض تحت أقدامنا. ومرة أخرى، أومض الأفق الشمالي ونبض بالتفجيرات المتراكبة. وبذلك تم سحق قطاع عرضه كيلومتران محمي بكثافة بمواقع مدفعية عراقية مضادة للطيران عيار 23 ملم من نوع زد اس يو، وكان ذلك باستخدام مقذوفات شديدة الانفجار وذخيرة تقليدية محسنة.

وبين الرشقات، سمعنا الضرب المميز لجهاز دوران مروحة الطائرات العمودية المسلحة أباتشي ايه اتش-64. وصاح جيم غاس فوق هدير المدفعية: "حان الوقت للفصل الثاني." ومرت أربع وعشرون طائرة عمودية مسلحة من لواء الطيران الحادي عشر مروراً سريعاً، ولها هيئات مظلمة طويلة أضاءتها من تحت ومضاتُ

فوهات سبطانات الهاوتزر. وعندما عبرت حافة الحدود، انتشرت طائرات الأباتشي لليسار ولليمين في تشكيل واسع للهجوم. وكان آخر مقذوف مدفعية قد اصطدم بهدفه عندما وصلت الطائرات العمودية إلى أهدافها، وهي سلسلة من أبراج البث اللاسلكي واستحكامات الاتصالات التي كانت تربط الفرق العراقية في الخط الأمامي مع مقار قيادات فيالقها عميقاً داخل العراق. واستخدمت الأباتشي مناظير الأشعة تحت الحمراء للرؤية الليلية، وأطلقت صواريخ هِلفاير (نار جهنم) الموجهة بالليزر على أبراج العدو ومبانيه، واشتبكت مع الجند العراقيين بمدافعها من نوع مدافع السلسلة عيار 30 ملم السريعة الرمي.

وعندما حوّمت الطائرات العمودية المسلحة، كشفت طائرة تجسس إليكتروني تدور بالقرب من الموقع رادارًا معادياً مضاداً للطيران يسبر باحثاً عن الطائرات المسلحة. وقامت طائرة التجسس ببث بيانات الهدف إلى مجنزرة غاس. وبعد ثلاث دقائق انفجر فوق موقع الرادار اثنا عشر صاروخاً من أنظمة قذف الصواريخ المتعددة، ممزقة المعدات والمشغلين إرباً إرباً بما صار العراقيون يسمونه "المطر الفولاذي."

ومع وصول المفاوضات إلى قمة درجة الحمى، عندما حاول العراقيون بشكل يائس أن يتجنبوا الاقتحام الأرضي الوشيك من قوات التحالف، استمرت غزوات مدفعيتنا.

وكان الجنرال شوارتسكوف قد أعطى إنذار التأهب لقوات التحالف لتكون مستعدة لشن الهجوم الأرضي مع حلول 23 شباط/ فبراير إذا سكن مطر الشتاء العاصف وهبوب الغبار. وتابعنا الرمي عبر حافة الحدود. وفي كل ليلة، قامت وحدات العمليات النفسية بقيادة شاحنات مزودة بمكبرات صوت عملاقة تسير ببطء جيئة وذهاباً على طول الحدود، وتشغل تسجيلات أصوات قعقعة الدبابات والعربات من نوع برادلي. وهذه الخدعة أكملت جهداً آخر من جهودنا في العمليات النفسية، وهي إذاعة بث لاسلكي كاذب يقلد أصوات عدة فرق ثقيلة تتحرك إلى الأمام إلى مناطق تجمعها التعبوية النهائية قبل الهجوم.

وتبعت كلَّ هذا في 20 شباط/فبراير أكثرُ مناوراتنا طموحاً للخداع: وهي عملية نايت سترايك (ضربة الفارس). وفي أي طريقة عالجنا بها هذه العملية، سيكون من المستحيل أن ننفذ خداعاً مقنعاً لا يتضمن تماساً أرضياً مع العدو. ولذلك، ففي عملية ضربة الفارس، سيقوم العقيد راندي هاوس، قائد اللواء الثاني بلاك جاك "الراية السوداء" من الفرقة، بالتقدم الكاسح المباشر في الوادي في تشكيل إسفيني في لواء دبابات ثقيل. والغرض من ذلك هو إقناع العراقيين بأن هذا الاندفاع كان هو رأس الحربة للاقتحام الرئيسي.

وانطلقت عملية الهجوم عند الظهيرة، والعربات من نوع برادلي من سرية الخيالة الأولى، من الخيالة الخامسة، تستكشف أمام دبابات أبرامز ام 1 إيه 1 المدمدمة. كان هاوس سيشتبك مع وحدات المشاة الآلية والدروع العراقية التي كنا نعرف أنها متخندقة على بعد عشرة كيلومترات في الوادي وذلك وفق مناورة تعرضية تقليدية أمريكية هي "التحرك إلى التماس."وسنقبل المخاطرة بمواجهة قوة معادية أكبر منا بكثير من أجل إنجاز مهمتنا، ولكن راندي هاوس لن يسمح للوائه بأن يكون في "اشتباك حاسم." كانت العملية سبراً، ولم تكن التزاماً بالمواجهة في قتال قريب والضرب بقوة.

وفي رأيي، كان التمييز الحاسم هنا تمييزاً سوف يواجهني مراراً وتكراراً في مساري الوظيفي العسكري: هناك دائماً فرق بين المجازفة العملياتية المحسوبة، وهي التي تكون المخاطر والخسائر الممكنة فيها قد قُدرت بعناية وحُكِمَ فيها مقدماً، وبين المقامرة، وهي التي يُرمى فيها بالحذر في مهب الريح. إن الوحدة العسكرية القادرة على التكيف تستطيع أن تستنقذ نفسها من المجازفة، بينما قد تنتهي بها المقامرة إلى خسارة شاملة. وكنت أعرف أن اللواء الثاني يمتلك قوة نيران كافية ليهزم أي وحدة عراقية في الخط الأمامي ستواجهها في الوادي، وذلك لأنني قد درست صور الاستطلاع وتقارير الاستخبارات عن مواقع العدو. وكنت أيضاً قد قوّمت تقديراتنا لضرر المعركة من الأسابيع الأربعة من الحملة الجوية. إن الوقت الذي أمضيته في

فيتنام علمني قيمة حياة الجنود، سوف نقدم على المجازفة في خداع الوادي، ولكننا لن نقامر بحياة جندنا.

مشيت في مركز القيادة التعبوية أذرعه جيئة وذهاباً، وأنصت إلى التبادلات المتوقعة في شبكة لاسلكي اللواء عندما تحركت دروع راندي هاوس شمالاً. وفي الكيلومترات القليلة الأولى لم يواجهوا أي تماس مع العدو، ولا ألغاماً أرضية. وبعدئذ، انفجر مكبر صوت اللاسلكي بسلسلة من التقارير السريعة. كان المقدم مايكل باركر، قائد قوة الخيالة الساترة، في تماس مع كتيبة مشاة آلية عراقية في عربات قتال مشاة ذات تصميم سوفيتي قريبة من الأرض من نوع بي ام بي، مدعومة بدبابات تي-62. وعندما تطور القتال، وقعت المدفعية العراقية بين العربات الأمريكية المناورة. وردت دروع هاوس بسرعة. وأسرعت أبرامز إلى الشمال وانتشرت على عرض أرض الوادي، في مناورة كان اللواء قد مارسها ليلاً ونهاراً في مركز التدريب الوطني في صحاري فورت إروين، في كاليفورنيا.

ما كان إسفينا رقيقاً من عربات برادلي المدرعة تدريعاً خفيفاً تحول بسرعة إلى جدار من دبابات ام 1 إيه 1 يطلق طلقات مضادة للدروع شديدة الانفجار على تشكيلات العدو. وكان القتال سريعاً، ومن جانب واحد. وعند تراجع العراقيين، تركوا خلفهم الهياكل المدخنة من عربات القتال من نوع بي ام بي ودبابات تي -62 ، التي كانت أبراج العديد منها قد نسفت عنها نسفاً كاملاً.

وقدم هاوس تقريراً، مسمياً الهدف التالي على خط سيره: "نتقدم إلى مرحلة خط ماريلاند."

وأجبته: "تسلمت، عمل جيد."

وأشعلت سيجاري الثالث لليوم، وقاتلت الرغبة في أن أصعد إلى طائرتي من نوع بلاك هوك، وأطير شمالاً لمراقبة المعركة مباشرة على أرضها. ولكن هذا كان عرض راندي هاوس، وكان يقوم بعمل جيد للغاية.

كانت الدبابات إلى الخلف تتحرك على جانبي إسفين اللواء، مع وجود خيالة باركر الساترة مرة أخرى في الاستكشاف في المقدمة. لقد أدمى جند هاوس العدو، واجتازوا خبرتهم الأولى في القتال الأرضي المباشر.

ولكن عندئذ، كما يحدث دائماً في الحرب، تغير الموقف فجأة.

وسط غمغمة من الأصوات المنفعلة المثيرة للاضطراب على اللاسلكي، التقطت تقريراً مشوهاً عن مدافع للعدو من عيار 100ملم مضادة للدروع في استحكامات على المنحدر الغربي من الوادي. وازدادت شبكة اللواء ارتفاعاً وانفعالاً.

كان راندي يعطي تقريراً عن أن فريق مساندة رمي المدفعية قد حدد المدافع العراقية المخفية، ولكنه لم يملك الوقت ليطلب مهمة رمي قبل أن يفتح العراقيون النار على ثلاث مجنزرات مدرعة خفيفة كانت قد توقفت لتجمع العديد من الجند العراقيين المستسلمين. وتمكنت قنابل العدو من اختراق ام 113 وعربتين من نوع برادلي. وعندما كانت دبابة من نوع أبرامز تناور لتساعد، ضربت لغماً مضاداً للدبابات. لقد نفذ العراقيون كميناً حسن التخطيط.

قال راندي: "يا جنرال. لدينا ثلاثة قتلى وتسعة جرحى في المعركة، بعضهم حالتهم حرجة. إنني أتراجع على مرحلة خط ماساتشوسيتس."

وحدقت في الخريطة. لقد قتل ثلاثة جنود أمريكيون، وجرح تسعة. وسعى راندي إلى قطع التماس، بدلاً من تعريض المزيد من عربات برادلي الرقيقة التدريع والمجنزرات ام-113 للمدافع المخفية المضادة للدروع. لقد كان ذلك هو بالضبط ما كنت أود لو أفعله، ولكنه ليس المسار الصحيح للعمل العسكري إذا كنا نريد أن نقنع العراقيين بأن هذا الهجوم كان هو الهجوم الرئيسي.

أخذت المايكروفون من مشغل جهازي اللاسلكي: "الراية السوداء ستة، أنا أريدك أن تبقى مشتبكاً، دمر تلك المواقع المعادية، واسترجع الآليات المعطوبة."

وكانت هناك وقفة قصيرة: "بيغاسوس ثمانية، هذه الراية السوداء ستة. فهم."

وفي الوقت الذي كان فيه راندي منفعلاً في الوادي، أنذرت ملاحي طائرتي بلاك هوك بأننا سنطير شمالاً. وفي أثناء الطيران، راقبت شبكات اللاسلكي وسمعت فريق رمي المساندة لدى هاوس يطلب مهام رمايات وضربات جوية. وعندما كان مهندسو اللواء يستعيدون العربات المعطوبة، كان يجري نسف المدافع العراقية المضادة للدبابات، وسدنتها واستحكاماتها، إلى نُتَف بقذائف مدفعية من عيار 155ملم، وقنابل زنة 500 رطل، ومئات من الطلقات من مدافع غاتلنغ عيار 30 ملم من الطائرات الدوارة من القوات الجوية من نوع ورت هوغ ايه-10 (الخنزير الوحشي الإفريقي).

حييت هاوس في نقطة التجمع الخاصة باللواء على حافة الحدود. وكانت الطبابة تنقل الجرحى إلى مجنزرات الإسعاف. وكان ثلاثة جنود قتلى مسجين على الحمالات ومغطين بمعاطف الوقاية من المطر إلى جانب مجنزرة أخرى. كان راندي رجلاً شجاعاً، ومسيطراً. لقد كان قائداً جيداً وكنت فخوراً به.

وعدت في تفكيري إلى الكلمات المطمئنة من إيرك أنتيلا وسلوكه الهادئ في ذلك اليوم المزعج في شهر آذار/مارس 1968 عندما فجر الفيتكونغ مجنزرة ديك بهر قرب كي لي. ووضعت ذراعي حول كتف راندي، وقلت له: "لقد عملت بشكل جيد. وعمل جنودك مثل عملك. لقد أنجزت الواجب."

وكان المهندسون يسحبون الدروع المعطوبة. وقلت بشكل رسمي: "كل شيء حدث في الوادي اليوم كان من مسؤولياتي، أيها العقيد. كانت مهمتك أن تتحرك للتماس، ونفذت تلك المهمة بحذافيرها." وإذا كان سيجري أي رد فعل سلبي من الجهات العليا، فأنا أريدها أن تكون على رأسي، وليس على رأس راندي. عندما كنت ملازماً شاباً في فيتنام، كنت قد تعلمت أن الولاء ينساب إلى الأعلى وإلى الأسفل. وبصفتي جنرالاً فإنني سأحترم ذلك المبدأ.

وتفقدت أضرار المعركة في العربات المدمرة، وذلك لأتأكد من أنها لم تضرب من النيران الصديقة في بلبلة القتال. فمع وجود كل قوة النيران العالية التقانة

المنشورة في منطقة الحرب هذه، فإن ما يسمى "قتل الأخ" كان من قبل قد برهن على أنه خطر حقيقي. قبل أسبوعين، حدث أن أحد صواريخ القوات الجوية من النوع العالي السرعة المضاد للإشعاع، وكان قد استهدف الدفاعات الجوية العراقية، قد استقر خطأً على واحد من راداراتنا للرصد والمراقبة الأرضية قرب حافة الحدود، ومزق سطح عربة السيطرة وجرح جنديين. وأما في الوادي، فإن الأضرار التي تكبدتها عربات اللواء الثاني جاءت من نيران العدو.

وعندما رجعت إلى طائرتي العمودية، توقفت إلى جانب نقالات الجنود الموتى، وخلعت خوذتي، وحنيت رأسي، وتمتمت: "استريحوا في سلام."لن يكون هؤلاء الجنود آخر جنود سنفقدهم في هذه الحرب... وكنت أعلم ذلك.

في ذلك الفجر، كنت قد طبعت على بطاقتي اليومية من قياس ثلاثة في خمسة تحت عنوان تحديات: "خسائر في الوادي." وتحت عنوان الفرص. كنت قد كتبت: "خداع ناجح. يبقى العدو مثبتاً في المكان."

بدأ الهجوم الأرضي الكبير للتحالف قبل الفجر في اليوم المحدد لبدء المرحلة الأرضية من الحملة وهو 24 شباط/فبراير، في 1991. واتباعا للخطة، فإن الفرق الثقيلة من الفيلق السابع درجت عبر الصحراء المنبسطة إلى داخل العراق، متحركة شمالاً بسرعة عالية، وإلى الغرب بمسافة جيدة من تشكيلات الجيش العراقي المكدسة في مواقع دفاعية ثابتة في وادي الباطن. ولضمان أن يبقى العدو حيث كان، أرجعت الفرقة لواء بلاك جاك الذي يقوده راندي هاوس إلى الوادي، تسبقه سدود متراكمة من رمي المدفعية عيار 155ملم وأنظمة قذف الصواريخ المتعددة. وقاتل اللواء قتالاً ضارياً، مع قوات مهام من الدروع تتسابق نحو الوادي من كلا جانبيه، ودمر دروع العدو المتخندقة على اليسار وعلى اليمين قبل أن ينسحب إلى جنوب حافة الحدود ليلتحق مع بقية الفرقة.

تلك الليلة، وعندما اسودت السماء الشرقية بسبب مئات من آبار الزيت الكويتية المحترقة التي أشعلها العراقيون، كنا في موقع تعبوي جنوب حافة الحدود،

تركنا فيها الجنرال شوارتسكوف بصفتنا احتياطيه لمسرح العمليات. ولكن عندما صار واضحاً في أصيل اليوم التالي أن الفيلق السابع قد توغل في حركته عميقاً بما فيه الكفاية في داخل العراق ليبدأ انعطافه في الدوران إلى الشرق ليضرب جانبي العدو المكشوفين، أصدر شوارتسكوف أوامر جديدة: "أرسلوا إلى الداخل الفريق الأول، فرقة الخيالة الأولى. دمروا الحرس الجمهوري. دعونا نعد للوطن."

وتوجهنا غرباً وشمالاً عبر الخرق الذي قطعته فرقة المشاة الأولى في الخطوط العراقية في يوم بدء المرحلة الأرضية من الحملة. اندفعنا في الهجوم قدماً في أسافين بمستوى لواء بأقصى سرعة ممكنة، وكنا نشق مسارنا عبر حطام بقايا غير منظمة لأربع فرق عراقية، وندمر بقاياها ونترك خلفنا آلافاً من أسرى الحرب المرتبكين للشرطة العسكرية، الذين تبعونا في الذيل الطويل من الإسناد.

وهبت ريح هوجاء شمالية بعاصفة رملية من الغرب. واستحالت السماء إلى اللون البني، ثم إلى اللون الغامق الصَّدَئي البرتقالي. وأعولت الريح، وبدأت السماء تمطر.

وشرح واحد من سائقي مركز القيادة وهو يمسح الزجاج الواقي الأمامي المتسخ لسيارته من نوع همفي: "في الحقيقة، يا سيدي، إنها لا تمطر بقدر ما يمكن أن نقول إنها توحل."

وانخفضت الرؤية إلى أقل من مائة متر، وزال أدنى سقف لطياراتنا، وهبطت طائراتنا العمودية على الأرض، ولكن الفرقة استمرت مندفعة.

كان صوت وقع ضربات المدفعية الثقيلة يعلو فوق إعوال الريح الهوجاء إلى الشرق. وكانت دروع الفيلق السابع تندفع ساحقةً جانبي فرقتي توكّلنا والمدنية من الحرس الجمهوري، الذي كان ما يزال متوجهاً في أعماله نحو الجنوب وينتظر الهجوم الرئيسي من وادي الباطن، وهو الهجوم الذي لم يأت أبداً. واندفعنا نتسابق شمالاً. وكان سدنة دبابة ام 1 إيه 1 وبرادلي المدربون تدريباً جيداً يستخدمون المناظير الحرارية ليخترقوا العاصفة الرملية، ويسددون على الدروع

العراقية بنيران المدافع وصواريخ تو. في أضخم معركة للدبابات منذ الحرب العالمية الثانية، كان التحالف فيها يكتسح العدو اكتساحاً تاماً.

في وقت متأخر من أصيل 27 شباط/فبراير، انخفضت الريح وصحت السماء. وكانت الثمانمائة من الدبابات، وعربات برادلي، وعربات المساندة التابعة للخيالة الأولى قد قطعت 192 ميلاً من الصحراء في ثلاث وثلاثين ساعة، وكانت قد أخذت تشكيلها على الجانب الأيمن لفوج الخيالة المدرع الثالث، الذي أُعطي موقعاً بالقرب من النقطة الشمالية من الفيلق السابع.

كانت أمامنا فرقتا الحرس الجمهوري حمورابي وعدنان تزحفان بعيداً من الوادي، مؤملتين أن تهربا صعوداً في وادي نهر الفرات على الطريق العام رقم 08 ولكن الطريق كان مغلقاً بلواء من فرقة المشاة السابعة والعشرين، وهو أقصى لواء إلى الشمال. ومع وصول الخيالة الأولى، فإننا كنا الآن نملك ما يكفي من قوة نيران الدروع والمدفعية لنسحق به أفضل وحدات القتال لدى العدو.

في وقت متأخر من تلك الليلة، في مركز قيادة الجنرال تيليللي، تقابل كبار ضباط الفرقة لمناقشة عمليات اليوم التالي. وكانت لدينا أوامر أن نعيد التزود بالوقود، ونعاود التسليح، ونقوم بالإصلاح طوال الساعات الاثنتي عشرة القادمة، ثم نتقدم إلى الأمام للتماس.

وعندما كنا نتفحص الرموز المرسومة بقلم رصاص شمعي على خريطة جون تيليللي، حك واحد من الضباط الأركان حنكه وقال: "حسناً، وأخيراً، سيحصل صدام على معركته (أم كل المعارك)" ولكن أحداً لم يضحك.

كنت قد استلقيت قبل قليل لأريح عيني، وكنت غارقاً في نوع ما من حلم موحش، عندما هزني الضابط المناوب ليوقظني.

وقال مع ابتسامة كبيرة مكشرة: "سيدي، رسالة برقية من الفيلق. وقف إطلاق النار في المسرح ابتداءً من الغد الساعة 0800".

انتهت الحرب. شهور من الإعداد. مائة ساعة من القتال.

كنت فخوراً بالفرقة، وبالجند، وبالقادة. وكنت شاكراً لجون تيليللي لأنه تركني أقوم بواجبي. لقد كان معلماً وصديقاً. وكانت الخيالة الأولى محظوظة ليكون هو لها قائداً في زمن الحرب، وكنت أنا محظوظاً ليكون هو لي قائداً.

عندما كنت أطير راجعاً إلى فورت هود على متن الطائرة النفاثة المستأجرة في 1 آذار/مارس، استعرضت الدروس التي تعلمتها بصفتي جنرالاً شاباً. بعض الأفكار كانت تخص قضايا تعبوية هامة، وبعضها الآخر كان ببساطة يخص حقائق الحياة في الميدان.

إن الشهور التي قضيتها في الصحراء قد عززت من جديد قناعتي التي كنت أراها لوقت طويل وهي أن الرقباء، في الحقيقة، هم الذين كانوا العمود الفقري للجيش. وأن العسكري المتوسط يعتمد على ضابط الصف من أجل القيادة بالقدوة الشخصية. لقد فكرت في سام لونغ وفي سكاغ. وفي الرقيب المعلم كيتل، فهم الذين كانوا الأمثلة لما يجب أن يكون عليه الرقيب. إذا كان ضابط الصف مكرّساً لجنده فإن الزمرة أو الحضيرة سوف تتلقى تدريباً شاقاً واقعياً، وسوف تتناول الطعام الساخن عندما يكون متوافراً، وتغتنم الفرصة لأخذ حمام من حين إلى آخر. وإذا كان الرقيب غير مكترث لحاجات جنوده، فإن أداءهم سيخفق، وقد تهدر حياتهم. إن الضابط الحصيف يعمل بجد كبير لتطوير ضباط الصف الجيدين.

والجنرالات ليسوا معصومين من الخطأ. وعندما يضع الجيش النجوم للجنرالات، لا يصرف لهم الحكمة معها. وقيادة الجنود من رتبة جنرال تعني أكثر من مجرد ابتداع التعبئة وإصدار الأوامر. والضباط القادة، قادة الألوية والكتائب، وقادة السرايا وقادة الفصائل، يعرفون كلهم عن نواحي القوة ونواحي الضعف في وحداتهم أكثر مما يعرف عنها الجنرال الذي يقودهم. ولذلك يجب على الجنرال الناجح أن ينصت أكثر مما يتكلم. ويجب عليه أن يعالج كميات مذهلة من المعلومات وأن يستعمل هذه المعلومات ليصنع قرارات صعبة. ويجب عليه أن "يتحمل اللوم

بينما يقر بالفضل للآخرين." ويجب على الجند أن يفهموا أن جنرالاتهم يهتمون بهم، وأنهم لن يقامروا بحياتهم، ولكنهم بدل ذلك سيوجهونهم بكل تفانٍ، نحو النجاح في مهمتهم، ونحو النصر.

لقد سجلت عملية عاصفة الصحراء أول ظهور لذخائر التوجيه الدقيق، وهي التي تسمى "القنابل الماهرة"(*)، والتي أحدثت ثورة في الحرب الحديثة. ولكن ذخائر التوجيه الدقيق ذكية وليست في الواقع ماهرة: إن طلقة كوبرهيد سوف تصيب أي هدف يضيئه الليزر، ولكن يجب على العقول والأيدي البشرية أن تكون هناك لتصويب الليزر وتثبيته إلى الهدف وعليه.

قال نابليون: "إن الله يقاتل مع الجانب الذي يمتلك أفضل مدفعية." ومع ذلك، فعند الذهاب إلى عملية عاصفة الصحراء، كان الجيش العراقي يمتلك آلاف القطع من المدفعية السوفيتية الصنع. وكانوا يتفوقون علينا بعدد المدافع بمعدل ثلاثة إلى اثنين. والذي قضى عليهم هو استخدامهم لتلك المدافع استخداماً سيئاً. فعندما تم تدمير أبراج رصدهم الأمامية وفقدوا شبكات اتصالهم لم يبتدعوا البدائل ويتكيفوا. وتحت الإزعاج المستمر من طيران التحالف، ولكونهم خائفين، وهو خوف له ما يبرره، من نيراننا المضادة للرادار، وهي التي كانت تتبع المقذوفات القادمة وتستهدف مدافع العدو من أجل تدميرها تدميراً فورياً، فقد اختار العراقيون أن يقعدوا في مواقعهم نفسها ويأملوا بالأفضل.

أما قواتنا فكانت قوة مقاتلة مرنة، وقادرة على التكيف على نحو عال. لقد حول العقيد جيم غاس مدفعية الخيالة الأولى إلى عنصر المناورة الثالث للفرقة، العنصر القادر على مجاراة الدبابات والمشاة الآلية في مسيرها. وعندما أثبتت مجنزراتنا في فريق نيران المساندة أنها أبطأ من حاجتنا فإن جند نيران المساندة ركّبوا دليل الليزر على عربات برادلي العالية السرعة. وبقي التجديد علامة مميزة للجندي الأمريكي.

(*) Smart bombs شاعت تسميتها باسم (القنابل الذكية). ولكن السياق هنا يرجح ترجمة كلمة Smart بمعنى ماهر Skillful.

إن عاصفة الصحراء هي العملية التي اقتنعتُ فيها بقوة الخداع في الحرب، إن الخداع في الحقيقة مضاعف للقوة، ومن خلال حركات تضليل وحيل خديعة مخططة تخطيطنا حسناً ومنفذة تنفيذاً حاذقاً، استطاعت فرقة الخيالة الأولى أن تُثبِّت تشكيلات العدو في مكانها وهي تشكيلات كانت تفوقنا عدداً بشكل كبير، وأحياناً وصل إلى ستة لواحد. لقد استخدمنا كل أداة متاحة لنقنع العراقيين بأن الفرقة كانت هي رأس الحربة لاقتحام التحالف عبر وادي الباطن. وبينما كان العراقيون ينتظرون، ناور الفيلق السابع عبر العواصف الرملية في صحراء خالية إلى الغرب، وضرب قوات الحرس الجمهوري على جانبه مثل مرزبّة.

إن أقدم مفكر إستراتيجي في العالم، وهو صن تزو، كان قد نصح المحاربين منذ 2.500 سنة بأن "يتقدموا عبر طرق غير متوقعة ويهاجموا نقاطاً غير محروسة." وذلك هو بالضبط ما أنجزته قوات التحالف في عاصفة الصحراء. وكانت النتيجة، بدون أدنى شك، أروع مثال للمناورة المنسقة المرنة منذ أن قام الجيش الثالث للجنرال جورج باتون بالاندفاع عبر أوروبا الغربية في الحرب العالمية الثانية.

واعتمد تحالف عاصفة الصحراء على السرعة كذلك. فطوال مائتي عام تقريباً كانت حِكم الإستراتيجي البروسي كارل كلاوزفيتز قد أملت بأن الكتلة، وهي التشكيلات المركزة للجند وللمدافع، هي المفتاح إلى النصر. فلتحقيق النصر، نصح كلاوزفيتز بأن القوة العسكرية يجب أن تكتل قواتها عند "مركز الثقل" من العدو. ولكن النصر في عاصفة الصحراء برهن على أن السرعة تمتلك كتلة خاصة بها تماماً. إن كتيبة من دبابات ام 1 إيه 1 تتحرك بسرعة، في المكان الصحيح، وفي الزمان الصحيح، تمتلك كتلة تدميرية أكبر من فرقة دبابات تي -72 في الحرس الجمهوري في المكان الخطأ، تقبع في مواقع دفاعية. لقد حشد العراقيون في الميدان رجالاً أكثر، ودبابات أكثر وقطع مدفعية أكثر من التحالف. إن ما هزم العراقيين كان مزيجاً من التقانة المتفوقة، والتدريب الواقعي، والتعبئة المتحركة المرنة لقوات التحالف.

ولكن الحملة لم تكن بلا مشكلات. لقد كانت مصممة لتكون العملية التي نسقت جهود قوة متعددة الجنسيات، ومتعددة صنوف الأسلحة. كان لدى القيادة المركزية الأمريكية آلاف من الجند، ورجال الجو، والبحارة المقسومين إلى عناصر أرض، وجو، وأسطول، ولكل عنصر قائده الخاص بثلاث نجوم. ولم يكن الجنرال شوارتسكوف هو القائد العام وحسب، ولكنه كان أيضاً القائد، بالأمر الواقع، لعنصر القوات الأرضية المشتركة. وكانت النتيجة أن أركان شوارتسكوف أمضوا مدة كبيرة من الوقت والطاقة وهم يخططون وينفذون عمليات أرضية، بينما قام قائد العنصر الجوي الفريق تشارلز "تشك" هورنر من القوات الجوية، بالتخطيط والإدارة للعنصر الجوي. وهذا الوضع مال إلى فصل العملية إلى حملة جوية وحملة أرضية، وهي إستراتيجية "فك النزاع" (البدء بأسابيع من الضربات الجوية، وتجنب مناطق عمليات الوحدات الأرضية) بدلاً من الحرب المشتركة الحقيقية.

بعد أن قرأت التقارير الأولية بعد القتال، كرست بعض التفكير الجاد للتحديات المعقدة للقيادة المشتركة في الحرب الحديثة. وقد أدركت أن التحديات سوف تشتد فقط في السنوات القادمة. وبعد أن صارت الحرب الباردة خلفنا، فإن القوات العسكرية الأمريكية سوف تخفض. وفي الحقيقة، فإن العديد من الفرق التي كانت قد قاتلت بشكل ممتاز جداً على رمال العراق في العام 1991 ستطوي أعلامها وتسرح، وذلك جزء من التخفيض الكلي في القوات. وسوف يكون متوقعاً من قادة المستقبل الكبار أن يعملوا الأكثر بالأقل. وكان واضحاً، أن التعاون المشترك العملي، في السنوات القادمة، لا مجرد "فك النزاع" سيكون أمراً أساسياً لتحقيق النصر.

وحروب المستقبل ستقاتل بأسلحة أخرى وتقانات أخرى كانت تبدو وكأنها من الخيال العلمي عندما كنت ملازماً في فيتنام.

بدت لي فورت مونرو، في فرجينيا بخندقها وشرفاتها الحجرية المبنية في القرن التاسع عشر والمشرفة على مياه قناة هامبتون رودز، بيئة غريبة لتكون مقراً

لخزان الجيش الفكري الأكثر تجديداً عندما وصلت هناك في شهر حزيران/يونيو 1992 . ولكنها كانت قريبة قرباً كافياً من واشنطون من أجل الوصول السهل إلى وزارة الدفاع، بينما هي في الوقت نفسه بعيدة بعداً كافياً عن مكائد طريق الحزام(*) ليسمح ذلك لقوة مهام مناورات لويزيانا بالتأمل العميق في جيش القرن الحادي والعشرين في بيئة هادئة نسبياً.

لقد كان رئيس أركان الجيش الجنرال غوردون سوليفان، وهو واحد من بين أكثر القادة العسكريين تجديداً في القرن العشرين، كان ينشىء "مختبر مستقبلات" وقد اختارني لأكون مديره. وقد سمى هذه المنظمة على اسم سلسلة من التمارين الميدانية التي كان الجيش قد أجراها في لويزيانا الريفية في صيف العام 1940، عندما قام رئيس الأركان الجنرال مارشال، وقد أفزعه نصر ألمانيا النازية الصاعق المذهل في فرنسا في ذلك الربيع، بمسك جيش أمريكا المعجب بنفسه في زمن السلم من قفا عنقه وهزه، باحثاً عن تعبئة (تكتيك) مجددة وعن قادة أُولي طاقة ليقودوا أمريكا في النزاع الكوني الذي بدا فجأة مخيفاً. ومن ذلك التمرين الميداني برز قادة من أمثال جورج باتون، مع مبادئ حرب الأسلحة المشتركة الحديثة التي قادت أمريكا إلى النصر في الحرب العالمية الثانية.

واعتزم الجنرال سوليفان على أن يستخدم نهاية الحرب الباردة، عند قيام الجيش يسحب تشكيلاته من أوروبا، ليشكل ويشحذ قوة مقاتلة، تكون أقل ضخامة، ولكنها أكثر مرونة وأقدر على القتل.

وعندما اختارني الجنرال سوليفان للعمل، سلمني شريحة إيجاز مولدة بالحاسوب. وقال "احفظ هذا في عقلك وتذكر أن الأصغر ليس هو الأفضل. الأفضل هو الأفضل." وكانت كلماته واضحة وضوحاً لا مزيد عليه.

(*) طريق الحزام الدائري المحيط بواشنطون دي، سي وهو يقصد المؤسسة السياسية في واشنطون دي. دسي. ومن فيها من شاغلي المناصب، والعاملين في جماعات الضغط، والمستشارين، والمعلقين في وسائل الإعلام.

العقيدة العملياتية المستقبلية لن تبقى ثلاثية الأبعاد، والنصر يذهب فيها إلى الجانب الذي هيأ أضخم قوة مقاتلة مع أعظم عدد من الدبابات، والسفن، والطائرات. الآن سيكون هناك بعد رابع: الزمان. وفي القرن الحادي والعشرين سيوجد النجاح العملياتي، وهو ما يسميه العسكريون "النتيجة"، في المكان وفي الزمان الصحيح معاً: وضعُ أفعل قوة، في المكان الصحيح، وفي الزمان الصحيح. وفي هذه الطريقة الجديدة من التفكير، سوف تكتسب الحتميات الإستراتيجية التاريخية وهي الهدف، والكتلة، والاقتصاد بالقوة معنى جديداً. وفجأة، فإن الراية العتيقة "ثورة في الشؤون العسكرية" التي يستعرض بها المفكرون الإستراتيجيون كل بضع سنوات ليعلنوا بعض التقدم الصغير،لم تبق مجرد مبالغة. إنها ستصير هي الحقيقة الواقعة الجديدة عن الحرب.

وكما لخص الجنرال سوليفان الموقف العام للجيش، فقد كان مما لا ينكر، مع ذلك، أن القوة المقاتلة في المستقبل ستكون أصغر من أي وقت مضى منذ فيتنام. وبعد إعادة توحيد ألمانيا في العام 1989، أعيد نشر ما يقارب 300.000 من الجنود ومن أفراد عائلاتهم من أوروبا إلى الولايات المتحدة. وهبط عدد فرق الجيش الموجودة في الخدمة الفعلية من ثماني عشرة فرقة إلى ثلاث عشرة فرقة، وكان يخطط للعدد أن يهبط إلى عشر فرق. وإجمالياً، خفض الجيش صفوفه بما يصل إلى 400.000 عسكري وموظف مدني. وكان مجلس الشيوخ ووزارة الدفاع يقومان بتخفيض الميزانيات تخفيضاً كبيراً، راغبين في ذلك أن يستفيدوا من "عوائد السلام" التي كانت مستحقة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

وكانت وظيفة قوة مهام مناورة لويزيانا هي أن تستكشف إمكانية التقانة المجددة، والعقيدة، والإجراءات، والتدريب وقدرتها على ضمان بقاء هذه القوة المعدة للقتال في الحرب، أقوى قوة في العالم، وهي أقل مما كانت عليه القوة الأمريكية في السابق.

طوال سنوات، كنت قد أجريت تجارب في التجديد التعبوي. والآن، وبوصفي

لاعباً فعالاً في هذه المبادرة العريضة لإعادة صنع الجيش من جديد، كنت أدخل في الروابط الكبيرة.

كان منصبي بصفتي العميد الجنرال المدير لقوة المهام مثل منصب نائب الرئيس في شركة كبيرة. وكان مجلس الإدارة فيها مكوناً من رئيس الأركان ومن جنرالات الجيش في رتبة أربع نجوم. وكما هو الحال في عالم الشركات، لم يكن عندنا نقص في عدد المستشارين، وهم مجموعة من جنرالات الجيش الذين وصلوا رتبة نجمتين، رتبة لواء، يمتلكون الخبرة في كل جوانب عمليات الجيش.

وأما مهمتنا التي كلفنا بها الجنرال سوليفان فكانت أن نلقي نظرة فاحصة شديدة الإمعان على أهم الأشياء التي يفعلها الجيش، وعلى هيكل وحداتنا، وطرق تدريبنا، والإجراءات التي كنا نستخدمها لتطوير الأسلحة والمعدات الجديدة والحصول عليها. وكان موقعنا يقوم فعلياً قرب مقر قيادة التدريب والعقيدة، التي كانت مسؤولة تقليدياً عن هيكل القوة، والتعليم، والتدريب. وفي واقع الأمر، كانت قيادة التدريب والعقيدة هي أهم زبون لقوة المهام.

وكان السياق الذي تتم فيه كل إعادة التقويم الواسعة المدى هذه هو الفكرة القائلة إن أمريكا لن تحتاج بعد الآن إلى قوة أرضية ضخمة مكلفة تتخذ لها قواعد في ما وراء البحار. وبدلاً من ذلك، فإن وحدات الجيش المقاتلة في الحرب سوف تتمركز في الولايات المتحدة، وسوف تتدرب وتتجهز بوصفها قوة عرض للقدرة، تستطيع الانتشار بسرعة في أي مكان في العالم في أوقات الأزمة أو النزاع.

وطوال عقود من الزمن، قامت وحدات القتال في جيش الحرب الباردة بالتدريب "في الموقع،" إذا جاز القول، في ألمانيا الغربية، أو في شبه الجزيرة الكورية، حيث يحتمل على الأرجح أن ترى قتال المستقبل. وأنتجت عقيدةُ القتال في الحرب في ذلك العصر، وأنظمةُ الأسلحة التي ولدتها، مفهومَ المعركة الجوية الأرضية، التي اعتمدت على المناورة السريعة بتشكيلات كبيرة مسلحة بأسلحة عالية التقانة.

لم يقاتل الجيش أبداً معركة جوية أرضية ضد الاتحاد السوفيتي في ثغرة فولدا في ألمانيا. ولكنني شاهدت عند الاندفاع شمالاً نحو وادي الفرات في 27شباط/فبراير 1991، معركة جوية أرضية تسحق الحرس الجمهوري العراقي. وفي مختلف الظروف والأحوال، لن أرى ثانية أبداً مشهد خمس فرق ثقيلة وفوجين من الخيالة المدرعة مع الآلاف من دباباتها وعرباتهم المقاتلة منشورة عبر مئات الأميال المربعة من الصحراء. وبعد ثمانية عشر شهراً من عملية عاصفة الصحراء، كان نصف وحدات الحرب الباردة تلك قد سرح. وعندما تذهب أمريكا إلى الحرب ثانية، ستكون في جيش أصغر. وكانت وظيفتنا في قوة المهام هي أن نتأكد من أن ذلك الجيش سيكون ما يزال قادراً على كسب الحرب.

من بداية عملي، صار واضحاً لي أن العمليات العسكرية المستقبلية ستكون مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك العمليات التي رأيتها في موقفنا الرادع الطويل ضد تهديد أحادي ومحدد تحديداً جيداً في الجانب الآخر من الستار الحديدي.

إن يوغوسلافيا السابقة انفجرت إلى الداخل إلى حرب أهلية شريرة، ووقع الناتو في نزاع البلقان المتوسع. وكان هناك خطر أن تصبح القوات الأمريكية متورطة في الصراع الذي لا ينتهي بين إسرائيل والفلسطينيين. وكانت حروب المناوشات والتمردات تنفجر عبر إفريقيا. وفي كولومبيا، هدد صراع الحكومة الذي لا ينتهي ضد عصابات اليسار بزعزعة استقرار المنطقة. وعلى الرغم من أن هدنة متوترة كانت تسود شبه الجزيرة الكورية، فإن هذه الهدنة قد تتحطم في أي لحظة.

وبرغم هزيمة العراق غير المتوازنة في 1991، فإن نظام صدام حسين كان ما يزال يشكل تهديداً يزعزع استقرار المنطقة. فبعد وقف إطلاق النار في شهر آذار/مارس مباشرة، ثار الشيعة في جنوب العراق ضد حكومة البعث التي كانت قد اضطهدهم لعقود من الزمن. وتبعتهم بعد ذلك في التمرد القبائل الكردية في الشمال. ولكن نظراً إلى أن قوات التحالف كانت قد انسحبت، فإن قوات صدام العسكرية سحقت هذه الثورات بوحشية، وذبحت منهم الآلاف وشردت عشرات

الآلاف وحولتهم إلى لاجئين. وقادت الولايات المتحدة جهداً إنسانياً للمعونة لإنقاذ اللاجئين الأكراد الذين كانوا يعانون الجوع في الجبال الشمالية والشيعة الذين كانوا يفرون إلى الجنوب نحو الكويت والمملكة العربية السعودية. وفي سبيل تطبيق مجموعة جديدة من قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة، التي طلبت من صدام أن يوقف المجزرة التي يشنها على شعبه، فرضت الولايات المتحدة وبريطانيا، وفرنسا مناطق حظر الطيران في الشمال والجنوب في العراق في العام 1991 والعام 1992.

كانت قوات التحالف قد دمرت بعض المخزونات من الأسلحة الكيماوية قبل أن تنسحب من العراق الجنوبي في شهر نيسان/ إبريل1991. وفي ذلك الصيف، حاول مفتشو الأسلحة التابعون للأمم المتحدة أن يشرفوا على تدمير المخابئ العراقية المتبقية للغاز السام وللأسلحة الحيوية، إضافة إلى الكيماويات البادئة وأوساط النمو. وكان على جدول أعمال المفتشين تدمير صورايخ العراق طويلة المدى وتفكيك مصانع صدام لإنتاج الأسلحة النووية.ولكن النظام ماطل، وراوغ، وقاوم التفتيشات مقاومة نشيطة في كل مرة تقترب فيها زمر الأمم المتحدة من المواقع الحساسة اقتراباً شديداً.

وقد تم احتواء صدام حسين مؤقتاً، "في الصندوق" حسب رَطَانة وزارة الدفاع، وذلك بعد السيطرة عليه بعقوبات الأمم المتحدة ومناطق حظر الطيران. وبدأ يظهر موقف رادع متوتر، وقدر له أن يدوم لسنوات.

وعندما كنت أقرأ كل تقرير من تقارير الاستخبارات عن التعاون العراقي المشكوك فيه مع مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة، كان واضحاً لي أن نظام صدام بقي مصدر تهديد.

ولكن العراق لم يكن إلا منطقة أزمات واحدة كانت قد انفجرت منذ انهيار الاتحاد السوفيتي. ونُدبت وحدات من الجيش الأمريكي المخفضة الحجم لتعمل في العديد من هذه البقع المضطربة، ولتؤدي عمليات غير تقليدية مثل حفظ السلام،

وفرض السلام، والإعانة الإنسانية، ومنع المخدرات. وبين العامين 1990 و 1995، كان الجيش سيقوم بإدارة سبعة وأربعين انتشاراً عملياتياً كبيراً، وهذه زيادة بنسبة 50 بالمائة عن سنوات الحرب الباردة.

وكانت المهمة الموكولة إلى قوة المهام لمناورات لويزيانا هي أن نفهم السياق الجغرافي الإستراتيجي للتسعينيات من 1990، ثم نقوم بعدئذ بتحديد هيكل القوة، والأسلحة، والجنود الذين سيحتاج إليهم الجيش في المستقبل ليعمل بفاعلية في عالم خطر وغير قابل للتنبؤ به على نحو متزايد.

كان عملي آسراً للاهتمام، ولكنه كان شاقاً. ولئن كنت قد توقعت جواً مسترخياً للتأمل النظري، مع تيسر الكثير من الوقت خارج العمل لأسرتي، فإن الجنرال سوليفان ومعه مجلس الإدارة من جنرالات النجوم الأربع، رتبة الفريق الأول، قد صححوني بسرعة. فكوني مدير قوة المهام كان يعني أن أتصرف بصفتي منسق الاجتماعات، ومسهل السفريات، ومخطط المؤتمرات، ومجند الأكاديميين وخبراء الصناعة، وأمين سر الرئيس.

اشترينا أنا وكاثي زورقاً شراعياً صغيراً، على أمل أن نستمتع بالجداول والخلجان الصغيرة في خليج تشيسابيك. ولكنني نادراً ما خرجت من المكتب قبل حلول الظلام حتى في وقت توفير ضوء النهار. واستغلت كاثي وقتها بإكمال درجتها الماجستير في الإدارة التربوية في جامعة جورج واشنطون.

واستطعنا أن نتدبر نهاية أسبوع طويلة في شهر أيلول/سبتمبر1992. فابنتنا جاكي، الطفلة الصغيرة التي كان من عادتها أن تنام في عربتها في شقتنا وهي تنتظر والدها، النقيب فرانكس، ليعود إلى البيت من كاسيرن، هي الآن تتزوج نقيبها الخاص من الجيش. لقد قابلت جاكي باتريك ماتلوك في فورت هود في العام 1990 عندما كان ملازماً أول في خيالة الدروع 3-32، وهي واحدة من الوحدات التي استمرت في القتال بشكل جيد في أثناء عاصفة الصحراء. وكان باتريك خريجاً ذكياً من كلية وست بوينت، وهو على طريق سريع إلى القيادة. وكان زواجهما في

كنيسة نيو بوست في فورت سيل، في أوكلاهوما، وهي الكنيسة نفسها التي تزوجت فيها أنا وكاثي.

كانت خبرة عاطفية، وأنا أراقب جاكي في عباءتها البيضاء، وهي تبدو إلى حد كبير الابنة الجميلة لأمها، ويدها في ذراع نقيب شاب في الجيش في ملابس الجيش الزرقاء، وتغادر تلك الكنيسة تحت قوس من السيوف. وبشكل ما، مرت ثلاثة وعشرون عاماً منذ يوم الربيع الدافئ عندما خطونا كاثي وأنا بفرح من الكنيسة، عروس جميلة شابة في اللباس الأبيض ويدها على ذراع نقيب شاب.

أمي كانت هناك طافحة بالسعادة. وفي الاستقبال نظرت إلى أشرطة حملة حرب الخليج الموجودة على بزتي العسكرية وسألت سؤالها الدائم. "كم بقي عليك من مدة الخدمة، يا بني؟"

أمي لم تستوعب تماماً أبداً أنني كنت جندياً محترفاً، وأنني لم أكن "أخدم مدة خدمة محددة،" مثل والدي في أثناء الحرب العالمية الثانية.

وضممتها، وشعرت كم غدت خفيفة وضعيفة منذ جراحة السرطان التي أجريت لها في الثمانينيات من 1980. "يا أمي، حتى الآن سيكون هناك مدة أخرى طويلة."

وبعد أقل من عام من عرس جاكي، اتصلت غينيل لتبلغنا الرسالة التي كنا نخافها: "أمك توفيت، يا توم."

كنت أظن أنني كنت مهيأ. ولكن الأنباء كانت ما تزال صدمة باردة. سرطان أمي عاودها. وانتقلت إلى ضواحي دالس، حيث قامت غينيل بالعناية بها كأنها كانت أختها الكبيرة. غينيل كانت تقود سيارتها وتأخذها إلى المواعيد الطبية وتطبخ لها في شقة المعيشة المعانة الصغيرة. وكانت غينيل مع أمي عند النهاية. وعندما تحدثنا، أدركت مرة أخرى أن رباط الحب كان يمتد ليتجاوز علاقات الدم.

بعد الجنازة، رجعت إلى طاولة تكدست عليها عالياً المهام المستعجلة.

وفي حوالي منتصف النهار من بعد ظهر يوم من أيام السبت في شهر أيار/مايو

1993 وضع ضابطي التنفيذي الذي طالت معاناته كدساً من الرسائل الإليكترونية المطبوعة، وهي البوادر السابقة لما يعرف اليوم بالبريد الإليكتروني الموجود بشكل شامل، على طاولتي... في الوقت الذي كنت فيه على وشك أن أغادر المكتب لأذهب مع كاثي في الزورق الشراعي.

وقال: "يريد الرئيس هذه الرسائل جاهزة مع دعوة المؤتمر في الساعة 0730 في يوم الاثنين."

وتفرست في الرسائل، وكانت بشكل رئيسي طلبات لمعلومات عن آخر تقانة المحاكاة المتوافرة غير المستخدمة في السوق المدنية. لقد كانت إحدى توصياتي المبكرة أن نختصر الطريق في عملية الشراء المضنية في الحرب الباردة والتي صارت سيئة السمعة بشراء وزارة الدفاع لمقعد حمام بسعر 640 دولاراً ولشاكوش بسعر 435 دولاراً. وكما يقال لقد عُلقت بمنجنيقي، فمن حفر حفرة لأخيه وقع فيها. لقد برمج مجلس الإدارة أن يناقش الموضوع في الأسبوع القادم وكان يجب علي أن أعد الجنرال سوليفان لهذا الاجتماع، وهو واجب سوف يستغرق ما بقي من يوم السبت ومعظم يوم الأحد لإكماله.

ومددت يدي إلى الهاتف لأكلم كاثي. وتمتمت: "السلام جهنم."

كان عمل قوة المهام لمناورات لويزيانا عملا صعباً، ولكننا حققنا تقدماً فعلياً. لقد قاربنا إنشاء قوة للقرن الحادي والعشرين بمراجعة "المجالات" الستة الأساسية، أو قوالب البناء، للجيش. ومن الطبيعي، أنها حملت مختصراً يغلط به اللسان مكوناً من الحروف الأولى لكل كلمة وهي دي تي ال او ام اس، عن العقيدة، والتدريب، وتطوير القائد، والتنظيمات، والمواد، والجنود.

طوال خمسين سنة تقريباً، كانت العقيدة الأساسية للجيش تركز على احتواء الاتحاد السوفيتي في الستار الحديدي، وذلك عن طريق وضع تشكيلات الدروع الثقيلة والمشاة الآلية في أوروبا. ونظراً إلى أننا لم نكن نستطيع أن نجاري حلف وارسو في أعداد الجند والدبابات، فقد كانت وحداتنا، حتى مستوى بطاريات

الهاوتزر الفردية، مسلحة بأسلحة نووية تعبوية، مثلما كان لدي عندما كنت أقود البطارية في كاسيرن هانز شيم في أواسط السبعينيات من 1970.

أما الآن فسيكون حجر الزاوية في عقيدتنا الجديدة هو النشر السريع لوحدات متمركزة في الولايات المتحدة الأمريكية في الواقع إلى أي مكان في العالم . غير أنه سيكون من المستحيل أن ننشر آلاف الدبابات، وعربات المشاة المقاتلة، وكل قواعد إسنادها وفق ما قد يكون ضرورياً في أزمة طارئة. لقد استغرق التجمع من أجل عملية عاصفة الصحراء ستة أشهر قبل أن تكون الوحدات قد أخذت مواقعها من أجل حرب أرضية. وسيكون من الحمق أن نفترض أن سرعة حروب المستقبل ستكون بطيئة مثل ذلك.

إن عقيدة القرن الحادي والعشرين التي طورناها في قوة المهام تضمنت الوضع المسبق للأسلحة والمعدات في مستودعات، وعلى ظهر السفن في البحر الأبيض المتوسط، في الشرق الأوسط، وفي المحيط الهندي، وفي آسيا، وفي الأزمة ينقل الجند جواً إلى المواقع، ويلتحقون بدباباتهم، ومدافعهم، وشاحناتهم، وذخائرهم، وإعاشاتهم، وبمستشفياتهم الميدانية، وبكل الآلاف من الجزئيات والقطع الأخرى التي تحتاج إليها قوة مقاتلة حديثة.

والتدريب مهم للجيش مثل التعليم للحياة المدنية، وفي قوة المهام أطلقنا دراسة مكثفة لإجراءات تدريب الجيش بدءاً من الأساس فصاعداً. وفي وجه الميزانيات المخفضة في "زمن السلم"، استكشفنا طرقاً تجديدية للوصول بالجند الجدد إلى مستوى الجاهزية القتالية، وهي أساليب من شأنها أن تكون أرخص وأفعل في الوقت نفسه.

وصار واضحاً في الحال أن المحاكاة المعانة رقمياً ستكون تقانة حاسمة تستطيع أن تكمّل، إن لم تحل تماماً محل الكثير من تدريب الرمي الحي المعقد والمكلف الذي كان الجيش يعتمد عليه منذ الحرب العالمية الثانية. وبالانتفاع والاقتراب من التقدمات المدنية في الواقع الحقيقي للتقانة، كان الجيش في الحال يشتري محاكيات لمعظم أنظمة أسلحته الكبيرة. وكان سدنة دبابات أبرامز، وعربات برادلي المقاتلة، والطائرات العمودية من نوع أباتشي المسلحة يتدربون الآن في محاكيات كانت تنسخ وتحاكي ضجيج القتال، وحركة الارتجاج، وفوضى القتال، وكان

التأثير أصيلاً جداً إلى الدرجة التي روى فيها بعض المحاربين في حرب الخليج أن الخبرة كانت واقعية للغاية تقريباً.

وحتى أكثر المحاكيات إقناعاً، كان من الطبيعي، أنها لا تستطيع أبداً أن تحل تماماً محل خبرة تمارين الميدان والحذاء العسكري على الأرض مع الأسلحة والمعدات الحقيقية. ولكن قوة المهام أوصت فعلاً بعشرات التحديثات المحوسبة لمركز التدريب الوطني في فورت إروين، في كاليفورنيا، حيث كان الجيش يشحذ في ذلك المركز مهاراته في حرب الصحراء، ومثلها لمركز تدريب الجاهزية المشتركة في فورت بولك، في لويزيانا، فقد كان الجنود يتدربون فيه على العمليات الراجلة والقتال في المناطق الحضرية. إن إطلاق "النار" بالمحاكاة الليزرية من مدافع الدبابات ومن الأسلحة الصغيرة علّم الجنود أن يقاتلوا قتالاً واقعياً، ولكنه قتال في معارك بلا دماء، بينما أدى الاستماع إلى أشرطة الصور (الفيديو) ومشاهدتها إلى أن يُظهر للقادة إلى أي مدى ناورت قواتهم على نحو جيد. وعززنا أيضاً التغذية الراجعة عن "الرجل في الحلقة" للدخول إلى شبكات المحاكاة، والتي سمحت للفروع المنفصلة من أسلحة القتال والموجودة في قواعد مختلفة أن تلعب لعبة الحرب مع زملائها في ميدان معركة رقمية.

ووصلت الثورة المتسارعة في تقانة المحاكاة في نهاية الأمر إلى أبعد من الجنود الأفراد ووحدات القتال، وصلت إلى قادتهم وأركانهم. نحن الآن نملك القدرة على محاكاة النشر السريع لوحدات كبيرة، صعوداً حتى مستوى الفيلق. في الماضي، كان التمرين الدوري الضخم المعروف باسم عودة القوات إلى ألمانيا، يشمل نقل آلاف من القوات عبر الأطلسي، وهي عملية كانت تكلف عشرات الملايين من الدولارات. أما الآن، فإن كل العملية المعقدة، مع كل مشكلاتها الحتمية وأخطائها، يمكن أن تحاكى بالحاسوب.

وفي غضون عام، بدأت الاختراقات في التقانة العالية تتضاعف بسرعة، مثل كرة الثلج المنحدرة من علٍ، في صفوف الجيش. ومع نضج عصر المعرفة في العالم المدني، صار مفهوم "فضاء المعركة" الرقمي، ثلاثي الأبعاد حقيقة واقعة.

(*) ملمح للتوجيه يسمح بالتدخل الإنساني (التصحيح... إلخ) عندما يكون السلاح متقدماً إلى الهدف ليطبق عليه.

وحلت شاشات البلازما(*) محل خرائط الورق في مراكز القيادة المحوسبة وفي مقار قيادة الأنساق العليا. وصار عرض نطاق الترددات (الذبذبات) اللازمة لاستقبال وإرسال البيانات أصلاً من الأصول الثابتة وصار حيوياً على القدر نفسه مثل الذخيرة والمحروقات.

ومع نمو التقانة، تطور النموذج التقليدي للقيادة والسيطرة(سي2) بسرعة من خلال السيطرة والقيادة والاتصالات ليصير (سي 3)، ثم أضيف الحاسوب بوصفه الملمح الرابع للنظام ليصير (سي 4). وفي نهاية المطاف أضيفت صفة خامسة هي الاستخبارات.ليتحول إلى نظام صار يعرف باسم سي 4آي(**): القيادة، والسيطرة، والاتصالات، والحاسوب، والاستخبارات.

وصار القادة يكتسبون القدرة على النفاذ عبر "الضباب واحتكاك الحرب،" تلك الاستعارة المثيرة التي تنسب كثيراً إلى كلاوزفيتز. وطوال آلاف السنوات، كان الجنود يتوقون لاكتساب القدرة على أن يروا ويفهموا ما يجري على الميدان عندما تنتشر فوضى المعركة. أين العدو؟ وأين قواتي ؟ هل استولينا على الهدف أم دفعنا للخلف؟ إن الثورة في تقانة الاستشعار، مقرونة مع منصات رصد طائرة (العديد منها مركب على مركبات جوية بدون طيار)، وَعَدَت قادة اليوم بنوع المنظور الأولمبي الذي كان هومر قد منحه لآلهته.

ومع القدرة التي تقدمها أجهزة الإحساس التي تعمل من بعد والمركبة على المركبات الجوية بدون طيار مقترنة مع التتبع بالأقمار بالنظام العالمي لتحديد المواقع، والوصلات العالية السرعة المؤتمة للبيانات، سيكون الجنود قادرين على أن يروا من خلال الدخان، والغيوم، وأحلك الليل، وأن يفهموا ميدان المعركة كما لم

(*) شاشات التلفاز العالية الوضوح، وهي لوحة عرض مسطحة ابتعائية ينشأ فيها الضوء من مواد فسفورية تستثيرها البلازما المفرغة بين لوحين مسطحين من الزجاج، والغاز المفرغ لا يحتوي على الزئبق، ويستخدم بدلاً من ذلك مزيجاً من الغازات النبيلة (النيون والأكسينوت). ومزيج الغاز عاطل وغير مؤذ بالكامل.

(**) اشتق رمزه من الحروف الأولى للكلمات وهي تبدأ بالحروف سي: Command للقيادة، Control للسيطرة Communication للاتصالات، Computer للحاسوب، Intelligence للاستخبارات.

يفهموها من قبل أبداً. إن محاكاتنا الآن كانت تتم في مختبر معركة رقمية أعطت الجنود، ابتداء من قادة دبابة مفردة إلى الجنرالات بأربع نجوم الذين يقودون مسارح حرب، درجة غير مسبوقة من الوعي بالموقف.

إن قدرة تقانة النظام العالمي لتحديد الموقع على أن تحدد الموقع الدقيق لعربة، كانت واحداً من اختراقات التقانة العالية التي استغلتها قوة المهام. وقد كنت فخوراً بأننا احتضنا هذه الأداة، بغض النظر عن أصولها داخل القطاع الصناعي الخاص، وهو ما يبرهن على أن الجيش كان أخيراً يهز ضيق أفقه التقليدي "لم يخترع هنا." لقد كانت شركة شنايدر للشاحنات هي أول شركة تركب مستقبلات النظام العالمي لتحديد المواقع مع برامج مرمّزة، تسمح للمرسلين والمديرين أن يروا فوراً المكان الذي تكون فيه أي واحدة من شاحناتهم التي تصل إلى أكثر من 400.000 شاحنة في أي وقت، وفي أي مكان من البلاد. وكانت كل شاحنة تمتلك جهازاً مرسلاً مستقبلاً لا يبث موقعها فقط بل يبث أيضاً رقم الوحدة والشحنة. وكان التطبيق العسكري لهذه التقانة واضحاً، ولذلك قامت واحدة من زمر قوة المهام بالاتصال مع الشركة، قبل مدة طويلة من تبني تقانة شنايدر للعربات العسكرية. ويستطيع الآن قادة الدروع، والمشاة الآلية، والإمداد والتموين متابعة قواتهم نهاراً أو ليلاً، في أي طقس أو أي ميدان معركة.

وفائدة أخرى للنظام العالمي لتحديد الموقع هي دوره في منع حوادث النار الصديقة، وهي التي ابتليت بها العمليات في حرب الخليج. وعندما نضجت تلك التقانة، سرّعنا تطوير لوحات عرض تتبع "القوة الزرقاء" وهي شاشات البلازما مع طبعات قطاعية رقمية، وعليها مواقع القوات الزرقاء (الصديقة) التي يتم تحديثها باستمرار. وعلى الرغم من أن استئصال النار الصديقة تماماً أمر صعب كما ثبت، فإن النظام العالمي لتحديد الموقع سوف يخفض خطر قتل الأخ تخفيضاً كبيراً في السنوات القادمة، وهي طريقة أخرى ساعدتنا فيها تلك التقانة لا على مهاجمة العدو فحسب بل على إنقاذ الحياة في ميدان المعركة أيضاً.

ولتكملة هذا النظام، استغلت قوة المهام تقانة جديدة مرقمنة كانت تقوم بإرسال صور الدبابات، والعربات المقاتلة، والطائرات العمودية المسلحة من الأقمار وأجهزة الإحساس من المركبات الجوية بدون طيار، وتربطها مع تتبع النظام العالمي لتحديد الموقع لتعطينا صورة أكثر دقة لترتيب قوات العدو كذلك.

وعندما اقترنت قدرة تجهيزات الرؤية الليلية، مع التحديد الدقيق للتصويب الليزري، ومع تتبع النظام العالمي للموقع مع الأجيال الجديدة من الذخائر الدقيقة التوجيه، زادت قدرة أسلحتنا على القتل زيادة أُسّية. ومن بين مئات التقارير عن التقانات التي كانت بالانتظار قرأت بصفتي مدير قوة المهام، واحداً من أكثر التقارير شداً للانتباه، وكان يخص مفهوم توجيه النيران/ مراقب المساندة الجوية القريبة في المستقبل، الذي كان سينشر مع قوات العمليات الخاصة أو مع زمر صغيرة من المشاة. وهذا النسل الجديد من الراصد الأمامي سوف يحدد الأهداف المعادية، وسيقوم إما بإضاءتها من أجل القنابل الموجهة بالليزر أو من أجل مقذوفات المدفعية أو يقوم ببث إحداثياتها الدقيقة بالنظام العالمي لتحديد الموقع للطيران المحلق فوق الرؤوس (بدقة تصل إلى أقرب متر واحد). فتقوم الطائرات عندئذ بإسقاط قنابل وجهت نفسها بدقة إلى إحداثيات الهدف تلك، بغض النظر عن الطقس أو ظروف ميدان المعركة. وقد سمي السلاح ذخيرة الهجوم المباشر المشترك.

وقد قلت عندما أنهيت قراءة التقرير: "نحن، الآن، نصنع تقدماً حقيقياً."

وحدقت من خلال النافذة في الزوارق الشراعية في هاميستون رودز، متابعة للنسمات الشمالية الغربية. لقد كان منظراً يشبه هدوء بطاقة بريدية، وأما في عقلي فقد كنت أنظر من خلال الواقية الأمامية البلاستيكية (بليكسيغلاس) للطائرة العمودية اتش -23، إلى دخان وومضات قنابل الهاوتزر والقنابل المتفجرة على طول قناة كنه دوا. كنت سأبادل كل تلك الكتائب المدفعية والقاذفات المقاتلة مقابل خمسة من أسلحة ذخيرة الهجوم المباشر المشترك.

من مكتبي داخل شرفات القلعة الحجرية التي بنيت لتصمد للطلقات

الحديدية وقنابل المسحوق الأسود، كان لدي نافذة تطل على الممر المائي الذي تم فيه من خلال المونيتر(*) والميريماك إدخال الثورة على الحرب البحرية بالأساطيل في العام 1862. وأنا أيضا كنت أملك نافذة تطل على الطريق التي ستحارب فيها الحروب في فضاء المعركة في قرون قادمة. ولم أكن أستطيع أن أتصور الأثر الذي سيكون لذلك المنظور على السنوات التسع التالية من حياتي.

أمامي، هناك ثلاثة نجوم أخرى تنتظر... وحربان أخريان.

بدت لي الجبال المتجمدة من كوريا المركزية مثل آيسكريم بالنعناع من خلال نظارتي للرؤية الليلية. وحلقت طائرتي العمودية بلاك هوك للقيادة والسيطرة لنقوم بتحويمة، وفتح الطيار نظارته لينظر إلى شاشة الموقف التعبوي على لوحة عرض أجهزة القياس عنده.

وقال: "أشعة اكس شمالاً اتجاه 346 درجة صحيح، سيدي."

كان الوقت متأخراً في ليلة يوم خميس من كانون الثاني/يناير 1997. وأنا الآن جنرال بنجمتين، برتبة لواء، وكنت أتولى قيادة فرقة المشاة "المحارب" الثانية لنحو عامين تقريباً، وهو وقت مبهج حفاز، وقاسٍ شعرت أنه كان يشبه الحرب أكثر بكثير من السلم.

وكانت فرقة المشاة الثانية أضخم فرقة في الجيش، وأقدرها على القتل، وحدة "هجينة" مكونة من الدروع، والمشاة الآلية، ومشاة الاقتحام الجوي، وطيران القتال، والمدفعية. وكنا إضافة إلى ذلك الوحدة الأمريكية الكبرى المعدة للقتال في الحرب والمنتشرة أقرب انتشار إلى قوة معادية.

(*) مونتير ضد فرجينيا أو ميريماك، معركة بحرية تاريخية من معارك الحرب الأهلية الأمريكية، حدثت في ٩ آذار/مارس ١٨٦٢م بين سفينة الاتحاد المسامة مونتير وسفينة الكونفيدرالية المسامة فيرجينيا أو ميريماك. كلتا السفينتين كانتا مغطاتين بالحديد، وكانت المعركة هي النزاع الأول بين السفن الحربية المكسوة بالحديد. واشتبكت السفينتان في هامبتون رودز. وانتهت المعركة دون حسم. ولكنها أشارت إلى بداية الهندسة البحرية الحديثة.

وراء ميدان تدريبنا المتعدد الأغراض بمسافة ستة وعشرين كيلومترا، كانت توجد المنطقة المنزوعة السلاح وهي تتلوى كالثعبان عبر شبه الجزيرة الجبلية، وتمثل الحدود بين كوريا الجنوبية المزدهرة الديمقراطية، وكوريا الشمالية "جمهورية الشعب الديمقراطي." وكوريا الشمالية، وهي آخر دكتاتورية ستالينية باقية في العالم، كانت من الناحية الدبلوماسية والاقتصادية أمة معزولة مارقة، وكانت تتباهى بقوتها العسكرية التي لا تنكر في الوقت الذي كانت تطلب فيه العون الدولي الإنساني لتطعم شعبها الذي يعاني الجوع والحرمان.

وكان التناقض بين الكوريتين هائلاً دائماً في ليالي الشتاء الصافية هذه، عندما كانت كتلة الهواء السيبيرية بحرارة تحت الصفر تسيطر على جنوب شرق آسيا وتكون القدرة على الرؤية كاملة. ومن خلال النوافذ اليسرى من الطائرة العمودية بلاك هوك،كان سطوع الأضواء الحضرية لمنطقة العاصمة الكبيرة سيئول وسلسلة المدن الصناعية إلى الجنوب بعيداً عنها يلقي لوناً أبيض على خطوط المناسيب (الكنتورية) في المناظر الطبيعية. وإلى الأمام من خلال نوافذ غرفة القيادة، فإن الأضواء، مع ذلك، خفتت ثم توقفت وكأنها على خط شاطئ. وما وراء المنطقة المنزوعة السلاح، وهو نعت ساخر لأنها في الحقيقة أكثف منطقة على هذا الكوكب عسكرةً، كانت كوريا الشمالية خالية من الأضواء، كانت فراغاً مظلماً. ملايين من الناس البائسين، الذين يعانون من سوء التغذية، يمضون الليل المتجمد في مهاجع النوم المحرومة من التدفئة في المزارع الجماعية ومصانع الدولة التي لم تر الطاقة الكهربائية طوال شهور، ولم تكن تستطيع توفير حتى مادة الكيروسين للمصابيح.

ولكن "القائد العزيز" لكوريا الشمالية الدكتاتور الطائش الذي لا يرحم كيم يونغ الثاني، كان يتبجح بأن قواته العسكرية وهي أكثر من مليون من الجند، ومن رجال الجو، والبحارة هي من بين القوات الأفضل تجهيزاً وتغذية في العالم.

وحدقت في الجبال المظلمة الواقعة مباشرة بعد المنطقة المنزوعة السلاح. كان

يوجد الكثير من الكهرباء هناك، ولكنها كانت محجوبة داخل منطقة مكتظة بالأنفاق الإسمنتية المسلحة والكهوف المحصنة. يمتلك جيش كوريا الشمالية أكثر من 8000 نظام مدفعية طويلة المدى، من مدفعية الهاوتزر عيار 170ملم نوع كوكسان وقاذفات صواريخ ثقيلة، مخبأة في هذه التحصينات. وهي قادرة على أن تطلق 500.000 مقذوف في الساعة، وكانت هذه الأسلحة قريبة قرباً كافياً لتدمير كل سيئول وما حولها من محيط ممتد. ولدعم هذه القدرة النارية حشد الجيش الكوري الشمالي في الميدان حوالي 500 صاروخ سكود بالستي متوسط المدى، والعديد من هذه الصواريخ مسلح برؤوس كيماوية. وامتلكت كوريا الشمالية أيضاً برنامجاً قوياً للأسلحة الحيوية أنتج جراثيم الجمرة الخبيثة والطاعون. ولا يكاد نظام كيم يكلف نفسه عناء إخفاء تقدمه المستمر في الأسلحة النووية.

وعلى الرغم من أن جيش كوريا الجنوبية كان مجهزاً تجهيزاً جيداً، وعلى رأسه قيادة مقتدرة، فإن فرقة المشاة الأمريكية الثانية والقاذفات المقاتلة التعبوية الأمريكية هي التي شكلت القلب الذي يردع جيش كوريا الشمالية.

وقد أشارت الاستخبارات المتوافرة عن العقيدة القتالية لكوريا الشمالية إلى أن كيم إذا قرر أن يشن هجوماً على جارته في الجنوب، فإن هجومه سيأتي في شكل سد مدفعي ضخم، وهجمات مدرعة جنوباً عبر الوديان التي تقطع المنطقة المنزوعة السلاح، وغارات مغاوير تنفذها قوات خاصة في جيش كوريا الشمالية يصل عددها إلى 120.000 رجل. وكان التمرين الميداني في هذه الليلة اختباراً لقدرتنا على الرد على هذا التهديد التعرضي.

كان العدو يمتلك الميزة العددية في الأسلحة وفي الطاقة البشرية. ولكننا كنا نمتلك تقانة متفوقة وجنداً أفضل تدريباً. ومنذ أن توليت قيادة الفرقة بعد تسعة شهور مديراً للعمليات لقيادة القوات المشتركة/ للأمم المتحدة في سيئول، شدَّدت على التدريب في إطار التعبئة المرنة والسرعة. ولقد تدربنا فعلاً، شهراً في الداخل، فشهراً في الخارج. وعندما كانت إحدى ألعاب الحرب منهمكة في العمل في مناورة

لمقر قيادة اللواء في كامب كيسي أو كامب هوفي، كانت مناورة أخرى تبدأ مع مدفعية الفرقة في كامب ستانلي.

وكنت قد أخبرت كبار الضباط عندما توليت القيادة: "لدينا أقل من ساعة للرد رداً فعالاً على هجوم معاد، وصافرة الإنذار يمكن أن تصوت في أي وقت. يجب أن نكون مستعدين لنقاتل في هذه الليلة." وفي الحقيقة "قاتل في هذه الليلة" كان شعار فرقة المحارب.

وسيكون المفتاح إلى النصر هو إخماد مدفعية الجيش الكوري الشمالي في غضون دقائق من إطلاقها لرشقتها الأولى، لجعلها عاجزة عن إطلاق رشقة ثانية، ثم تدمير رأس حربتهم من دبابات تي -62 وعربات المشاة المقاتلة قبل أن تستطيع الانتشار كالمروحة على الطرقات العامة جنوب المنطقة المنزوعة السلاح. وستكون حماية مدفعيتنا وأنظمة صواريخنا، لمدة كافية لإبطال ورد زخم الضربة المعادية الأولى، أمراً حيوياً.

في التمرين الميداني في هذه الليلة كانت هاوتزراتنا ذاتية الدفع الجديدة من نوع بالادين وقاذفات أنظمة قذف الصواريخ المتعددة سوف تناور بشكل مستقل على سفوح الجبال الثلجية، متخذة غطاء لها في المضائق بين الجبال وتحت الجروف العالية، محاكية النار والحركة، وتعبئة "تحرك وارم" بسرعة عالية وهي التي ستحمي مدفعيتنا وهي تضرب مدفعية العدو بدقة. سرعة المناورة كانت جوهرية للبقاء، والدقة كانت حاسمة للنصر.

وكان العنصر الأساسي للدقة هو قدرتنا على التحديد الدقيق لمواضع أنظمة مدفعية العدو في غضون ثوان بعد أن تكون قد أطلقت أولى مقذوفاتها. لقد كان الرادار المضاد لبطاريات المدفعية موجوداً في مخزون الجيش منذ الأربعينيات من 1940، ولكن راداراتنا كاشفة الرمي من نوع تي بي كيو-37 كانت أكثر هذه الأنظمة حساسية في العالم. وكانت حواسيبها تستطيع فوراً أن تحلل مسار النيران القادمة، وتعطي الإحداثيات الدقيقة لنقاط رمي العدو إلى أسلحتنا المضادة للنيران في

غضون ثوان. وعندما تقوم بطاريات أنظمة قذف الصواريخ المتعددة، وأنظمة صواريخ الجيش التعبوية ذات المدى الأطول والمتأهبة بحالة إنذار، بإطلاق نار ضرباتها الانتقامية المعاكسة الأولى، فإن بطاريات الهاوتزر ستناور وتتحرك إلى مواقع مخفية في الجبال، ومن هذه المواقع ستضع ستاراً من القنابل شديدة الانفجار ومن قنيبلات الذخائر التقليدية المحسنة على مداخل أنفاق العدو وكهوفه.

ونظراً إلى أن هجوم الجيش الكوري الشمالي سوف يضم على الأرجح المدفعية والدروع، والمشاة الآلية، والقوات الخاصة، فقد كان على خططنا للدفاع عن كوريا الجنوبية أن تتضمن كل عنصر من الخدمات المشتركة وزمر أسلحة قتال الحرب المشتركة. وفي هذه الليلة، في الوقت الذي كانت فيه مدافع بالادين ومجنزرات أنظمة قذف الصواريخ المتعددة تقعقع مبتعدة خارج قواعدها إلى التلال المحيطة، كانت دبابات أبرامز ام 1 ايه 1 والعربات المقاتلة برادلي من اللواء الأول "الحديد" تسرع عبر حقول الرز لتأخذ مواقعها المسيطرة على الأرض العالية. وتقوم الطائرات العمودية بلاك هوك وشينوك حاملة الجند من لواء الطيران بتقديم الدعم للكتيبة الأولى مشاة 503 (الاقتحام الجوي) وهي تطير إلى الأمام لتأمين نقاط الاختناق في الممرات المطلة على المنطقة المنزوعة السلاح. وكانت حزمة الأسلحة المشتركة للفرقة قد اكتملت بالطائرات العمودية المسلحة من نوع أباتشي ايه اتش-64 وتكون محمية بالطائرات العمودية "الكشاف المسلح" المحارب من نوع كيووا ايه اتش-58 الأصغر، وهي تعانق الأرض المرتفعة لتحرم دبابات الجيش الكوري الشمالي من الاقتراب إلى فضاء المعركة.

وعندما أخذت أسراب من القوة الجوية اف- 16 تشكيلها إلى الجنوب، أزحت نظارتي للرؤية الليلية واستدرت إلى الحاسوب الصغير المركب بجانب مقعدي. كان الموقف التعبوي معروضاً هناك، في شكل رموز ملونة نابضة. كانت الصورة مشابهة لما كنت قد رأيته في لعبة الحرب التي كنا نتدرب عليها لمدة أيام، بالتشبيه والمحاكاة، ولكنها ليست قريبة قرباً كافياً. كانت المدفعية تستغرق وقتا أكثر مما يجب لتطلق

مهام الرمي التي تحاكيها. وتفرست في الشاشة، وأعدت نظاراتي الليلية لدراسة الأرض تحتي. ولم تعجبني المسافات بين الهاوتزرات وأنظمة قذف الصواريخ المتعددة. وسدود رمي البطاريات المعاكسة الخاصة بالعدو كان يمكن لها أن توقع بعض الأضرار الحقيقية. وعند النظر إلى مسافة أبعد إلى الشمال، رأيت أن سرية من عربات برادلي قد فقدت دورها وكانت على الأرجح ستتحرك نحو منطقة هدف القوات الجوية، وهو انطباع تأكد عندي من التدقيق السريع على لوحة عرض الموقف التعبوي في حاسوبي الصغير.

فهمت الموقف. سدنة المدفعية وعربات برادلي كانوا مستكنّين في ثكنتهم القاسية ولكنها المريحة رغم ذلك، ينامون، أو يشاهدون الفيديو، أو ينتظرون لاستخدام حاسوب في الثكنة لإرسال بريد إليكتروني إلى الوطن. وعندما صاحت صفارة الإنذار لبسوا بدلات الحماية الكيماوية فوق بزاتهم الشتوية، وخطفوا واقيات الرصاص والخوذات، وأسرعوا عدواً عبر الثلج إلى عرباتهم. تحت هذه الظروف، لم يكن من السهل الأداء في قمة لعبتهم. ولكن هذه كانت بالضبط هي الظروف التي سيحاول العدو استغلالها، الليل المتأخر، والزمهرير من البرد.

لم نكن جيدين بما يكفي. ضربت بجمع يدي مفتاح الميكروفون الموجود على جهازي اللاسلكي القيادي المأمون.

وناديت قائد اللواء: "حديد ستة، هذا محارب ستة. أعد. أعد. أعد. دعونا نحاولها ثانية."

وأجاب العقيد بل مارشال: "تسلمت، سيدي."

وانعطف طياري بالبلاك هوك إلى الشرق، وراقبت الأشكال الصغيرة للعربات المناورة تدور على منحدرات التلال الثلجية تحتي وتتجه عائدة إلى خطوط البداية الخاصة بها. لاشك أن بعض أولئك الخيالة كانوا يشكون من ذلك "ابن إلخ..." الذي كان يبقيهم عاملين طوال الليل. أوافق على ذلك، إن الجنود يشكون دائماً. ولكنهم

قاموا بواجباتهم دائما أيضاً. لم أنس أبداً ما علمني إياه النقيب بل باون هناك عند منصات المدفعية تلك في دلتا ميكونغ: كونك ضابطاً جيداً ليس كالدخول في تنافس على الشعبية. هذه الفرقة ستعيش بحسب الحكمة القديمة المأثورة: "كلما عرقت أكثر في وقت السلم نقص نزفك في وقت الحرب."

كان واجبي أن أجعلهم يتعرقون، لأن مسؤوليتي كانت تعني أن أكون جاهزاً لحرب كان يأمل كل إنسان أنها لا تأتي أبداً.

وهذا الأمر لم يكن سهلاً على الجند. وهو بالتأكيد لم يكن سهلاً علي. فأنا وكاثي عشنا منفصلين في هذا الوقت، مثلما فعل كل قادتي وكل أعضاء الضباط الأركان الأساسيين الذين كانت عائلاتهم معهم في كوريا. عاشت العائلات في معظم الأحوال في سيئول وكان إسكاننا مع جندنا في منطقة المسؤولية التعبوية للفرقة. وكانت كاثي تقوم بقيادة سيارتها من بيتها في سيئول، حيث كانت تدرس مادة التاريخ في المدرسة الأمريكية الثانوية، لتقضي نهاية أسبوع طويلة معي في قيادتي في كامب رد كلاود. ونتيجة للطريقة التي طُبق عليها هذا التمرين، وتكشف فيها،لم يتبق الكثير من الوقت لنهاية أسبوع.

ذلك ما لم يكن إلى دفعه سبيل. الجند لم يكونوا يقاتلون حرباً حقيقية. ولكن التدريب يجب أن يكون قريباً إلى القتال الحقيقي بأكبر قدر أستطيع أن أجعله. وسيكون التدريب كذلك إلى اليوم الذي أكملت فيه ستة وعشرين شهراً قائدا للفرقة وترقيت إلى ثلاث نجوم، رتبة فريق ثان، وتوليت قيادة الجيش الأمريكي الثالث- "خاصة باتون."

كنت سعيداً أنني وفرت بزة صحراوية مموهة نظيفة. وكما هو الحال دائماً، كانت الصحراء الغربية المصرية مكاناً مغبراً ملوثاً بالذباب، وليست بقعة سارة للقتال في حرب، مثلما اكتشف الجنود بدءاً من جيوش الفراعنة إلى جيوش الفيلدمارشال برنارد مونتغومري.

وعلى الأقل فإن الحرب التي قاتلنا فيها قبل قليل في تمرين النجم الساطع 99 كانت نسبياً حرباً بلا دماء. كانت هناك الإصابات المعتادة في أثناء حوادث التدريب، والتي كانت محتومة عندما يكون 70.000 جندي من أحد عشر بلداً قد اختلطوا بها طوال شهرين تقريباً من التدريب القتالي الواقعي. ولكننا جميعنا عشنا وكتب لنا البقاء بعد التدريب.

كان التاريخ 1تشرين الثاني/نوفمبر، 1999، وكان هذا النجم الساطع الثاني لي منذ توليت قيادة الجيش الثالث في شهر أيار/ مايو 1997. الجيش الثالث- قوات الجيش، والقيادة المركزية- كان هو عنصر الجيش للقيادة المركزية الأمريكية. وكنت قبل قليل قد حصلت على كلمة مفادها أن الجنرال البحري أنتوني سي. زيني القائد العام للقيادة المركزية كان سيُحضِر وزير الدفاع بل كوهين ليرى مركز قيادتنا الجديد القابل للانتشار بالتقانة العالية.

لقد كنا في النهاية الجنوبية من مدينة مبارك العسكرية. وكانت القاعدة قد سميت باسم الرئيس المصري حسني مبارك، وهو واحد من عدة قادة عرب كنت قد قابلتهم عندما سافرت في منطقة مسؤولية القيادة، وهي منطقة امتدت من قرن إفريقيا عبر الشرق الأوسط إلى باكستان. وطوال العام الماضي، كانت منطقة مسؤوليتنا قد امتدت لتشمل كل الجمهوريات التي تنتهي أسماؤها بمقطع ستان- أي جمهوريات آسيا الوسطى التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي سابقاً- ولكنني لم أكن بعد قد حصلت على الفرصة لأزور عواصم طريفة مثل طشقند في أوزبكستان، أو دوشانبيه التي انتصبت بين حدائق المغول القديمة تحت سلسلة جبال طاجيكستان الثلجية.

وما كنت على الأرجح لأنال تلك الفرصة. سنواتي الثلاث في نوبة عملي قائدا لقوات الجيش في القيادة المركزية كانت ستنتهي في ربيع العام 2000. وجنرالات النجوم الثلاث لا يرقون إلى أربع نجوم ما لم يكونوا معينين لمنصب يحتاج إلى تلك الرتبة. ولم يكن هناك العديد من الوظائف لجنرالات أربع نجوم في القوات

العسكرية الأمريكية. وقبل أن أغادر متجهاً إلى مصر، عقدت أنا وكاثي مناقشة أخرى من مناقشاتنا "يجب علينا أن ننتظر ونرى..." كان هناك، طبعاً، أقدار أسوأ من التقاعد برتبة فريق ثان. وكاثي وأنا قد قمنا مسبقاً بعمل مخططات أولية لبيتنا الذي خططنا للتقاعد فيه في تكساس.

وإذا كان لي من قرار واحد بالنسبة إلى تقاعدي، فهو أن أقضي مع حفيدتي وقتاً أطول مما كنت قادراً على أن أقضيه مع جاكي. لقد ولدت حفيدتنا الأولى في حزيران/يونيو 1997، عندما كانت جاكي وباتريك مقيمين في فورت نوكس، في كينتاكي. وسمُيت آن كاثرين ماتلوك على اسم جدتها الفرحة المحبة. وكان علي أن أنتظر حتى شباط/فبراير 2000 لأحصل على شرف مماثل، عندما سيولد صامويل توماس ماتلوك في فورت ليفينورث، في كنساس.

ولكنني سأفتقد كوني جندياً. في كوريا، كنت قد عملت مع مجموعة رائعة من الضباط وضباط الصف للمساعدة في بناء فرقة المشاة الثانية لتكون واحدة من أحدث وأقدر الوحدات العسكرية الأمريكية. وكنت محظوظاً أن أخدم تحت قيادة الفريق بل كرواتش، رئيسي القديم من أيام فوجنا المدرع الخيالة الثاني في ألمانيا، وكل من الجنرال غاري لوك والجنرال جون تيليللي اللذين خدمت معهما في أثناء عملية درع الصحراء/عاصفة الصحراء. وفي الحياة المدنية توقعت أن أتابع مساراً وظيفياً ثانياً في عالم الشركات، وكنت آمل أن يكون زملائي في المستقبل موهوبين مثل أولئك الذين سأتركهم خلفي في الجيش.

وسوف أفتقد القيادة أيضاً، بمسؤولياتها وبالفرص غير المسبوقة لقيادة الجند وإيجاد حلول مجددة لمشكلات صعبة. وعندما لبست تلك البزة النظيفة ذلك اليوم من تشرين الثاني/نوفمبر في مصر، نظرت عبر ممر الحصباء إلى القاطرات القصيرة الخضراء بلا نوافذ لمركز القيادة المحوسب للجيش والقيادة المركزية. منذ أيامي في قوة المهام لمناورات لويزيانا، عملت بجد على إدماج تقانة عصر المعلومات في الأعمال التي أسندت إلي. لقد بنينا مقر قيادة وفق أحدث ما أنتجه العلم في

الجيش الثالث في أتلانتا. ولكن حروب الجيش والقيادة المركزية، إن جاءت، ستكون على بعد آلاف الأميال عن جورجيا، ولذلك عملت مع الخبراء العسكريين والمدنيين لبناء مقر قيادة متنقل يمتلك تقريباً عرض نطاق ترددات وقدرة على الترابط البيني بنفس القدر الذي تمتلكه المنشأة الدائمة في فورت ماك فيرسون. هذه القاطرات، ومولداتها الكهربائية الخاصة بها ومعداتها المساندة، درجت بسهولة إلى داخل طائرات النقل في القوات الجوية من نوع الطائرات سي-141 وسي-5 ودرجت بسهولة إلى خارجها، ويمكن أن تكون جاهزة وتعمل عملياتياً في ثماني ساعات بعد الهبوط في أي مكان في منطقة المسؤولية.

وكنا نحتاج إلى تلك المرونة في الرد، لأن منطقة مسؤولية القيادة المركزية كانت تتحول إلى منطقة خطرة بشكل متزايد. وكان صدام حسين قد أمضى التسعينيات من 1990 في تحدي كلٍ من شروط وقف إطلاق النار وسلسلة من قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة.

ومع مجيء خريف العام 1998، كان العراقيون قد رموا الكثير من العقبات في طريق فرق البحث التي أرسلتها الأمم المتحدة للبحث عن أسلحة الدمار الشامل إلى الدرجة التي جعلت رئيس المفتشين ريتشارد بتلر يسحب مفتشيه إلى خارج العراق. وفي 15 من شهر كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، أدان تقرير مجلس الأمن في الأمم المتحدة حكومة صدام وقواته العسكرية لرفضهم السماح للمفتشين بفحص سجلات أسلحة الدمار الشامل ومواقع الإنتاج المشكوك فيها. في اليوم التالي، خول الرئيس كلينتون وزير الدفاع بل كوهن أن يهاجم النظام العراقي. وقامت صواريخ الهجوم الأرضي توماهوك والطائرات الحربية الأمريكية والبريطانية بقصف المواقع العراقية المشكوك في وجود أسلحة الدمار الشامل فيها ومنشآت الاستخبارات لعدة أيام في أثناء عملية ثعلب الصحراء. ومع ذلك، فمنذ أن انتهت تلك العملية، قام العراقيون بمهاجمة طائرات التحالف التي تقوم بالدوريات في المناطق الشمالية والجنوبية لحظر الطيران على أساس يومي في الواقع. كان الموقف في العراق ينذر بالاشتعال.

وكان هناك مسرح خطر آخر مساو في خطورته للعراق بدأ ينتشر عبر المنطقة. فالمليونير السعودي المنشق أسامة بن لادن، وجماعته الإرهابية الإسلامية المتطرفة من القاعدة، كانت تشن سلسلة من الهجمات الجريئة المتزايدة ضد المصالح الأمريكية والغربية. لقد كان هناك دليل على أن القاعدة كانت نشيطة في تاريخ مبكر يعود إلى العام 1993 في عملية نسف مركز التجارة العالمي في نيويورك، ثم إن ذلك الهجوم تلته مؤامرة طموحة، ولكنها أحبطت، لخطف وتدمير طائرات ركاب تطير بين أمريكا والشرق الأقصى. بعد ذلك، في 7 آب/أغسطس 1998، نفذت قاعدة بن لادن أجرأ اقتحام لها حتى تاريخه، وذلك بالهجوم في وقت واحد على سفارتي الولايات المتحدة في دار السلام في تنزانيا، وفي نيروبي في كينيا، باستخدام قنابل ضخمة في شاحنة قتلت أكثر من مائتين من النفوس البريئة.

ورد الرئيس كلينتون بإطلاق صورايخ الهجوم الأرضي توماهوك ضد مختبر أسلحة كيماوية مشكوك فيه للقاعدة في السودان، وضد العديد من معسكرات تدريب الإرهابيين في أفغانستان، التي كانت قد صارت الملاذ الرئيسي لابن لادن وقاعدة للعمليات. وتحولت أفغانستان، التي كانت تحت سيطرة المتطرفين الإسلاميين الطالبان، وهم بلا رأفة، وينتمون تقريباً إلى القرون الوسطى، تحولت إلى ??دولة راعية للإرهاب. ??وبحلول العام 1999،كنت مقتنعاً بدون أدنى شك بأن الولايات المتحدة ستكون قبل أن يمر وقت طويل في حالة قتال مع الإرهاب على الأرض في مكان ما من منطقة مسؤولية القيادة المركزية.

وفي هذه اللحظة، على كل حال، كانت مسؤوليتي الشخصية هي إعطاء رئيسي والوزير كوهين جولة في مقر قيادة الجيش والقيادة المركزية القابل للانتشار.

كان بل كوهين يتمتع بسمعة اكتسبها بشكل جيد لأنه وزير دفاع مفكر، وحاسم. وعندما أشعل الأركان الشاشات البلازمية وأداروا الأشرطة لتمرين النجم الساطع، وهي تبين كيف أن تحالفاً صديقاً هو "الأرض الخضراء" قد هزم المعتدين من

"الأرض البرتقالية،" وجه كوهين كل الأسئلة الصحيحة. كان يبدو متأثراً على نحو مخصوص بأننا استطعنا تجميع النظام باستخدام المعدات المتوافرة تجارياً. وكان ضباطنا الأركان ورقباؤنا يقفون على رؤوس أصابعهم جاهزين.وأجابوا عن كل الأسئلة التي طرحها الوزير، وغادرنا والابتسامة تعلو وجهه. وكنت فخوراً بمركز القيادة، وبالشباب والشابات الذين جعلوا المركز على هذا القدر من النجاح.

في صباح اليوم التالي، توقف عندي طوني زيني لزيارة قصيرة وذلك عندما كنا نحزم معداتنا للطيران عائدين إلى أتلانتا. لقد كان طوني في معنويات عالية، وهو أمر أرجعته إلى نجاح النجم الساطع. ولم أستطع إلا أن أبادله الابتسامة بابتسامة. لقد كان واحداً من أكثر الضباط الكبار صداقة لي من الذين قابلتهم طوال سنواتي الخمس والثلاثين في الحياة العسكرية، وهو أيضاً واحد من أبرعهم وأذكاهم. وهو شخص قوي العضلات كأنها محبس المطافئ وفي أواسط الخمسينيات من عمره، وقد نشأ طوني في فيلادلفيا ذات الياقات الزرقاء عند والديه المهاجرين الإيطاليين، وكان وجهه يبدو مثل وجه إمبراطور روماني قاس، مكسور الأنف على قطعة نقد معدنية من القرن الثالث الميلادي.

توافق وجودنا، هو وأنا، في فيتنام في العام 1967، ولكن في النهايتين المتقابلتين من تلك البلاد. ففي الوقت الذي كنت فيه ملازماً في المدفعية في دلتا الميكونغ، كان طوني يخدم في الفيلق الأول بصفة مستشار مشاة للبحرية الفيتنامية الجنوبية. لقد تعلم أن يتحدث اللغة بطلاقة، وأن يأكل طعامهم، بما فيه الجرو المطبوخ بالبخار في أوراق الموز، وقد غمس نفسه في مركّب فيتنام والحضارة القديمة. وتقدم في الرتبة، فطوني قد احتفظ بحبه للاستطلاع وقربه من الثقافات الأجنبية، وتلك الصفة خدمته خدمة جيدة بوصفه قائداً عاماً للقيادة المركزية.

وقال لي عرضاً: "إلى أين أنت ذاهب تالياً، يا توم؟"

وقلت: "عيد الميلاد مع الجند. ربما في السعودية، والكويت، والبحرين وقطر."

وقال لي عرضاً: "عندما ترجع إلى الولايات المتحدة، اتصل بي." ثم أضاف بعد

ذلك. "لقد قدمت توصية للوزير كوهين بأن تكون أنت خلفي في القيادة المركزية عندما أتقاعد في الصيف القادم."

حدقت في طوني ولكنني لم أكن أملك صوتاً لأجيبه. القائد العام للقيادة المركزية. يا إلهي- ربما كان ذلك هو أكثر المناصب حيوية في القوات العسكرية الأمريكية.

"لا ضمانات، يا توم، ولكنني أعتقد أن كوهين يحب الفكرة. وسنعرف أكثر بعد مطلع العام."

تذكرت، وأنا أقف هناك، المقدم آل لاماس، الذي أقنعني بالبقاء في الجيش في العام 1969، والعقيد جون هوداشيك، الذي رفض أن يحيلني إلى المحكمة العسكرية بسبب دفعي ذلك العسكري المتمرد في ألمانيا، وفوق كل ذلك تذكرت إيرك أنتيلا الذي أعطاني الإيمان بمهنة السلاح في ذلك الصباح الحار من أيار/مايو بالقرب من قناة كنه دوا. بسبب هؤلاء كنت ما أزال جندياً. والآن، شكراً لهم جميعاً، وشكراً لطوني زيني، وبدون شك شكراً للقدر، فأنا قد أتولى مسؤولية هي من أعلى المسؤوليات التي تقدمها العسكرية.

طوني وأنا تصافحنا. ومشى مبتعداً وأنا أُربِّتُ على أرقام رقم هاتف بيتنا إلى هاتفي على القمر إريديوم. "كاثي، عزيزتي... كيف تحبين أن تنتقلي إلى تامبا؟